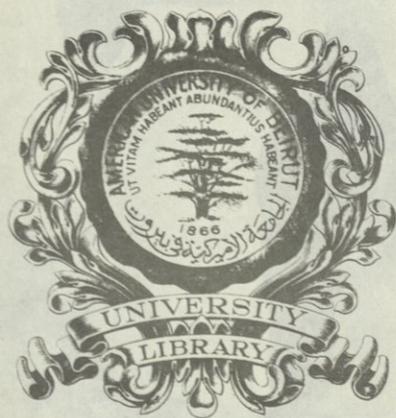
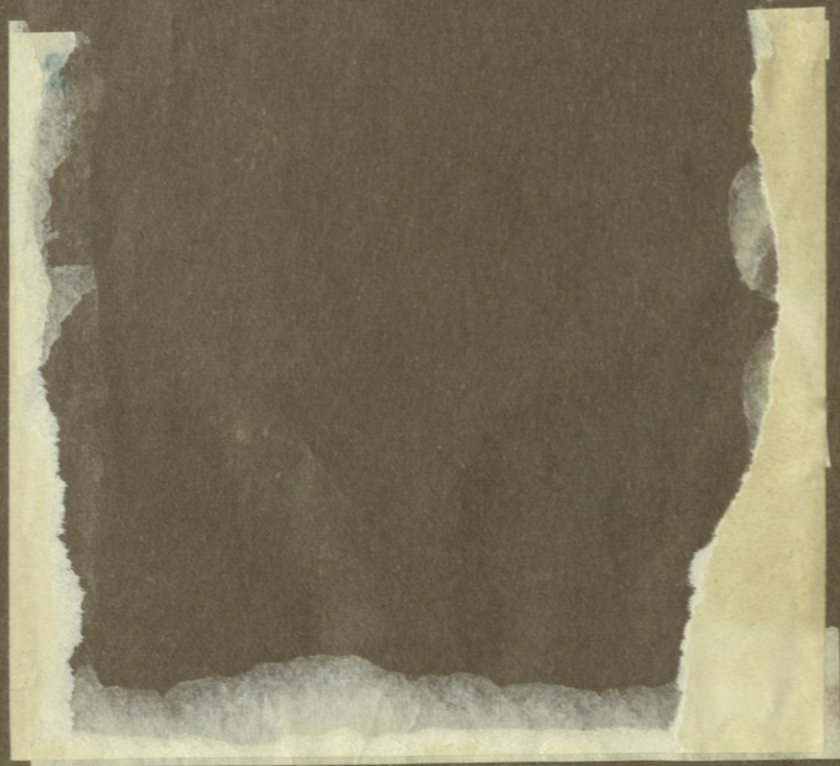
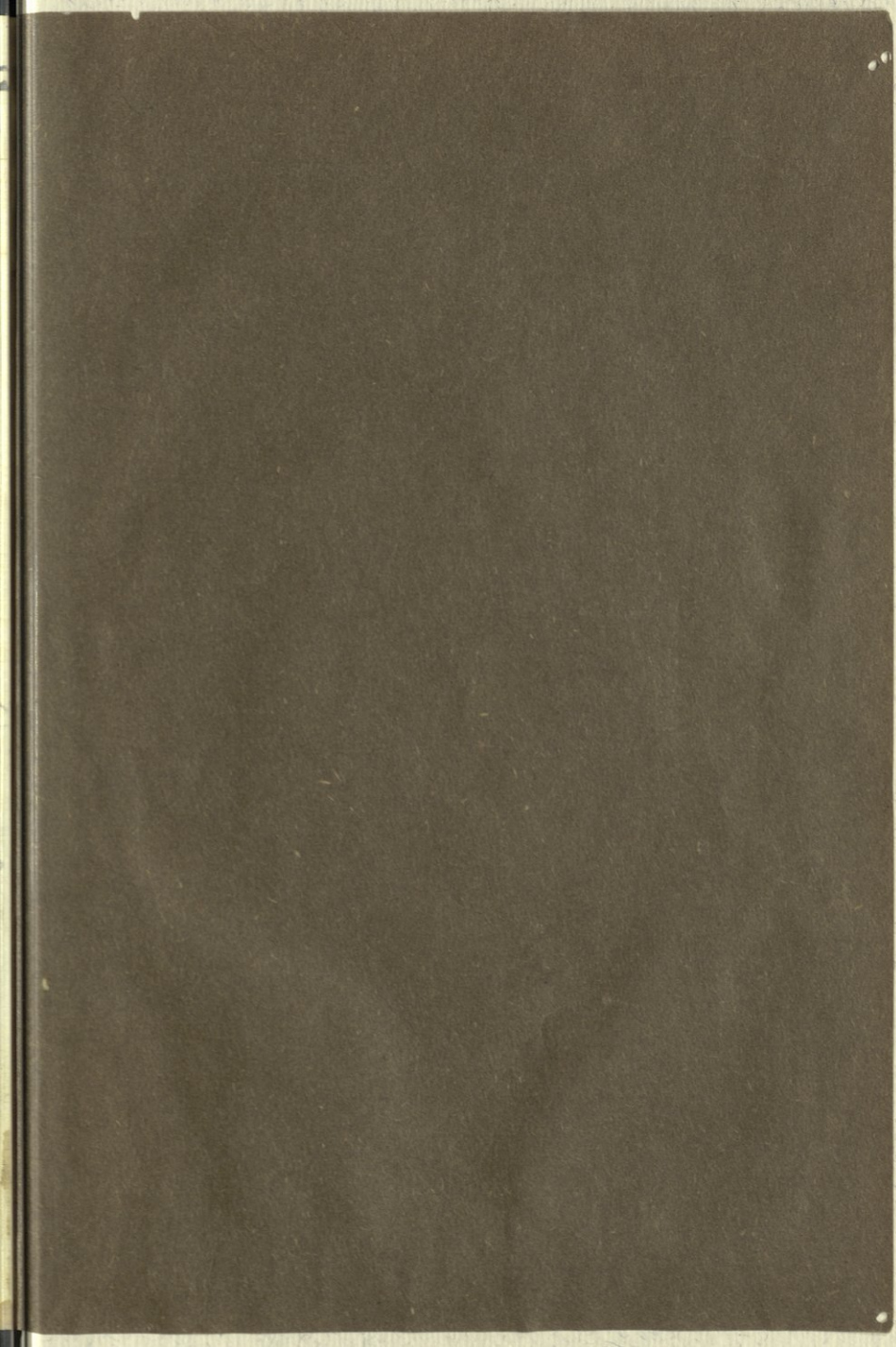


AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT







مقدمة الى مكتبة بيوت
لا اله الا الله

CA
914.602
F24rf
C1

٤٤٤١
لدى

مصطفى فروخ
١٥/٤٦

مقدمة الى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بقلم وريشة

مصطفى فروخ

مصدر بمقدمة للاستاذ

عمر فاخوري

49328

بيروت ١٣٥٢ - ١٩٣٣

مطبوع الكشاف بيروت

Gift
Cat. Oct. 1933



اهداء الكتاب

الى الفن الوندلسي الراقي الذي اوصى

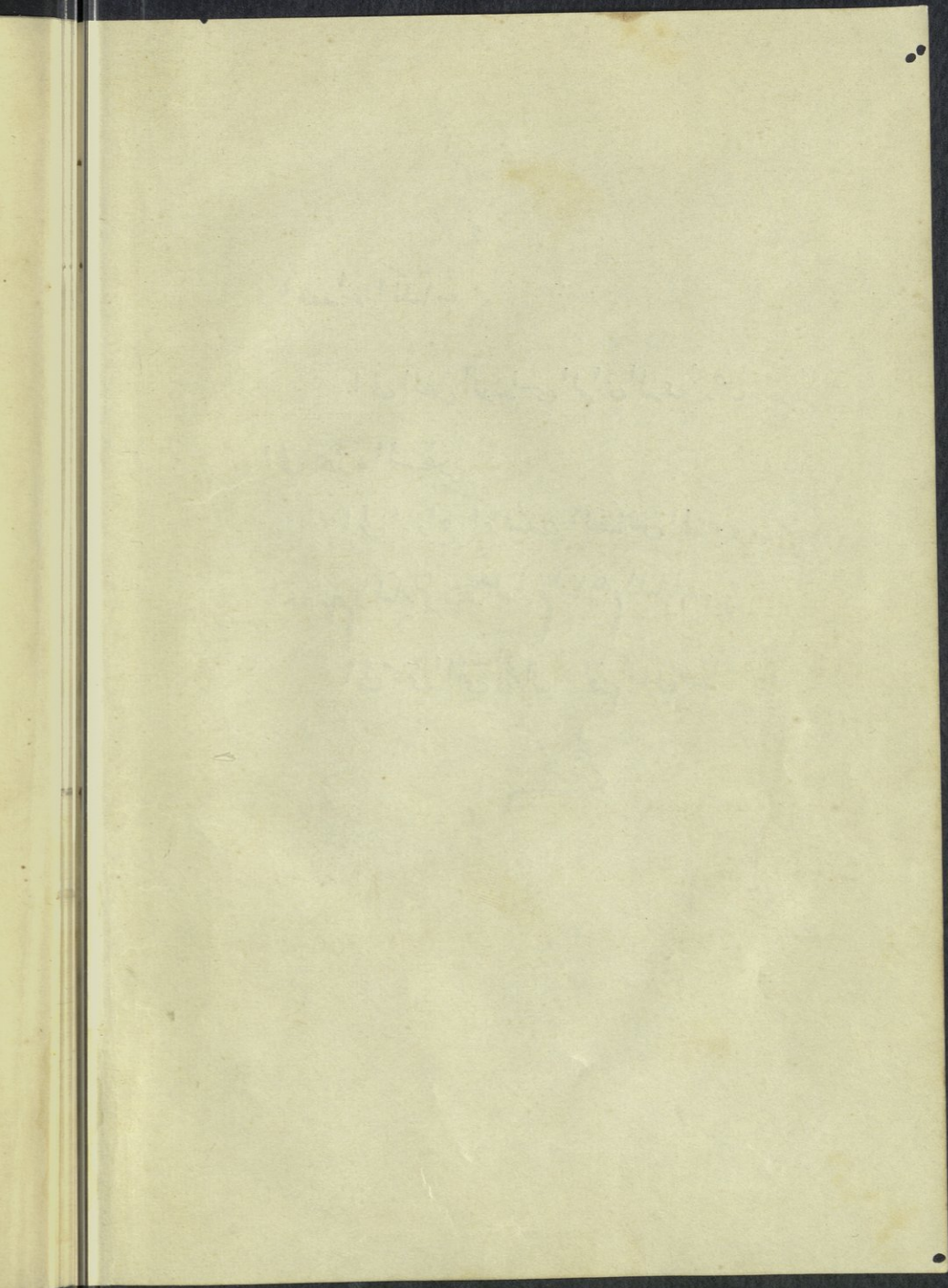
الي هذه الطور .

الى ارواح اولئك الفنانين الذين

اغفلهم التاريخ وغلقتهم اناهم الناطقة .

الى محبي الفن والجمال اتم كتابي هذا .

فروض



رسالة مقدمة

أخي مصطفى فروخ حفظه الله

لقد أوليتني شرفاً عظيماً ، وحملتني عبئاً (لا أقول :
ثقيلاً) اذ سألتني أن أقدم كتابك هذا الى القارئين .
فأشكرك أولاً ، وثانياً : ارجو أن اكون عند حسن ظنك
وظنهم ... أعني القارئين .

وليس هذا يا أخي بهين ، فإني منذ بضع سنين لم أعانِ
كتابة رسالة واحدة الى صديق أو قريب ، في أحسن الحاجات
وأبسط الامور ، فضلاً عن مقالة ، ناهيك بمقدمة كتاب !

وما هذا الكتاب؟ - هو اول كتاب من نوعه في لغة العرب ، فإذا لم تكن الطرافة من مزاياه ، بل من حلاه ، فأين الطرافة تكون؟

سألتني ايها الصديق مقدمة لكتابتك الطريف ، فهل تأذن الآن لي أن استهلّ كلماتي العجاف بهذه القطعة الموسيقية الفريدة من تأليفك الميمون ، في وصف جامع قرطبة ، خداعاً لنفسي وتمويهاً على الناس ، ولو هنيئاً؟

« قناطر مشتبكة كانها ادواح حملت من النقوش الدقيقة المشجرة ما هو اشهى من الاثمار ، او كأنها غابة من النخيل الظليل في واحة غناء وارفة الاغصان . وهناك على الجدران رسم وحفر ونقش وترصيع ووشم غاية في الفن والابداع ، تحلّت بالذهب ووشيت بالالوان الزمردية والقرمزية والسماوية ... »

رسم وحفر ونقش وترصيع و « وشم » !
من أين لك هذا « الوشم » البارع ، واسطة ذلك العقد

الفريد ، ايها العزيز ؟

وددت لو أنه لي بكل ما زخرفته ورصعته ووشيته أنا ،

من خزف الكلام !

لقد ملكت لي هذه الكلمة في هذا الموضع من وصفك
البديع ، وأسكرتني ، وادهشتني ، ولا يزال صداها يرن في
خاطري ، وليس أشكالها في تضاعيف كتابك بقليل ، فكأنني
بك لم تقنعك - وهل يقنع من آتاه الله مثل طموحك وجدك
وهمتك ؟ - الريشة الساحرة التي أخرجت من روائع الصور
ما كان ولن يزال فتنة للعالمين ، ولم تكفك الانوار والظلال ،
والخطوط والاشكال ، تؤلف أو تخالف بينها ، تارة اختراعاً
رمزياً ، وتارة محاكاةً طبيعية ، في قطع كأنها قُدت من صميم
الجمال ... لم يكفك ذلك كله وانت فيه المجلي ، فأتحفت الناس
بهذا الكتاب ، بإذلاً فيه العطايا الفطرية ، والحسنات الكسبية ،
التي جعلتك المقدم في فنك النفيس ، من صدق النظر ، الى دقة
الملاحظة ، الى رقة الاحساس ، الى سعة الخيال .

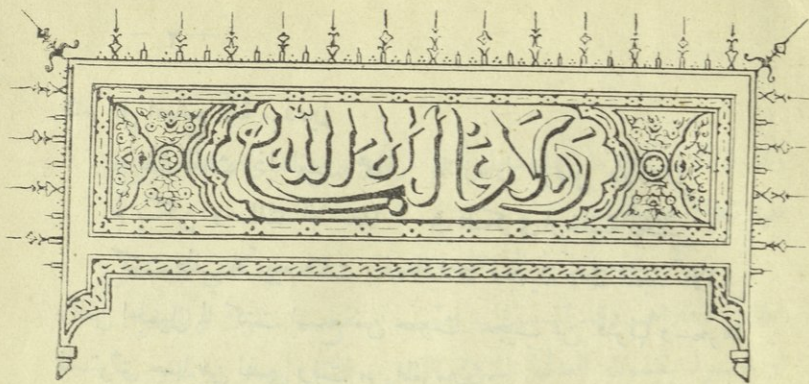
ولعمري ان لغتنا وادبنا لا ينجيان إلا خيراً من تمرس
أهل الفنون بهما ، اذ كلُّ يكسبهما من خواص فنه ، واساليبه
وأداته وسننه ، ما يزيدهما غنىً ونماءً ، وينحو بهما المناحي الجديدة
التي لا حياة للآداب واللغات بدونها . ثم أليست الفنون جميعاً
وان افرقت سبلاً ، تجتمع اخيراً تحت راية واحدة - هي سحر
البيان ؟

لا اطيل ايها الصديق ، لاني أضنُّ بشوق القاريء أن
أمسكه طويلاً على عتبة كتابك ، وهو يهيمُّ أن يصحبك (ولنعم
الصاحبُ انت ا) في هذه الرحلة السعيدة الى بلاد المجد المفقود
كانت رحلة موفقة ، أرجو لكتابك الجميل ، وقد أسلمته
يدُ الطابع ، مثلها - حتى يبلغ المدى في عالم البقاء . إن اجادتك
لجديرة بهذا التوفيق ، حفظك الله .

المخلص

بيروت في ١٩ مايو ١٩٣٣

عمر فاهوري



الاندلس

الاندلس ومن لم يسمع بها؟ هي غرناطة ،

اشبيلية ، قرطبة وطليطلة ، بل هي جامع قرطبة وزهراء اشبيلية
وجمرا، غرناطة الساحرة .

هي بلاد الوحي والفن والجمال ، نزل بها العرب فاوحى اليهم
ماؤها وارضها وسماؤها فنوناً عالية مبرها الخلود بجماله والبسها منذ
ظهورها حلة من الروعة والجمال لا تبلى ، من شعر كانه قطع الوشي ،
او اغاني الملائك ، او ترديد المنشدين ، وبناء جمع الضخامة والدقة
والتناسق فجاء آية من آيات الفن وفتنة للناظرين ، وتصوير تحال الحياة
تدب فيه ديبياً ، ونقش كائنات الاصابع التي اشتغلت به لم تكن اصابع

بشر بل اصابع آله مبدعين .

جادك الغيث اذا الغيث هما يا زمان الوصل بالاندلس

لم يكن وصلك الا حلماً في الكرى او خلسة المختلس

كنت طفلاً يوم قمت بهذه البلاد الجميلة ذات المجد الاثيل
والفن الجميل لما كنت اسمع من حديث عجيب عن فنونها وسحرها
فاستوثق حبها من نفسي وبت من المغرمين .

اجل شغفت بها طفلاً وشاباً وسأحتفظ بهواها مدى الحياة ، ولا
عجب فالمد والفن جديران بالحب والهيام .

وكان يزورني طيفها ويريني من جالها مشاهد خلافة وعن تاريخها
صفحات مجيدة فتمر بي بتلك الديار فأرى ابن الرازي في مخبره منهمكاً
بتجاربيبه الكيماوية أو آراءه جالساً في احد المعاهد الطبية وحوله
الالوف من الطلاب يلقي عليهم محاضراته القيمة في الطب والكيمياء ،
وها هو ابن رشد بلحيته السوداء ، وثوبه الابيض الفضا ، بيدي
آراءه الفلسفية . أليس هذا ابن جابر ؟ هناك في الجهة الاخرى الأتراء
قائماً بين الجماهير الكثيرة يحاضر في الجبر والهندسة والعلوم الحسابية ؟
انه لمشهد جميل فلا تابعن السير . انني امام الولادة بنت
المستكفي وقد قامت في حلقة تشرح لمن حولها سحر الشعر والبيان

وفنون الادب ، وما اجمل منظر ابن قرناس والجوهري وهما يجربان
طيارتهما امام الخليفة .

ثم يأخذني الخيال الى ابعد من ذلك فيدخلني الى قصور
الخلفاء ، فاراهم وقد تسنموا عروشهم يستقبلون الملوك والسفراء ،
او جلسوا يقيمون العدل بين الناس ، فتمثل احبار روما ورجال
الامم الاوربية يومئذ وكانوا لا يزالون في الجهالة ، اي نعم اتثلهم
وقد اتوا لتلقي العلوم في المعاهد العربية .

اشاهد الامراء والشعراء على باب الخليفة تنتظر اذنه
بالدخول ، تخيل القواد والحجاب هنا وهناك ، تمر امامي الجيوش ،
أسمع امر الخليفة في قرطبة فيتردد صدهاء في انحاء العالم باسره ، أبصر
الاموال الكثيرة والفديات. والهدايا اكاداساً على اعتاب الملوك الذين
ينثرونها على العلماء والشعراء والنابعين فتفيض قرائحهم بالمعجزات
من العلوم والراقي من الفنون .

(اتأمل في هذا العز وتلك العظمة وذاك الثراء فيخفق فؤادي
فرحاً لها وتأخذني نشوة المجد فاندفع لاهتف طرباً ولكن لا تلبث
الحقيقة المرة أن تفاجأني فيتلعثم لساني اذ اعلم ان ما اشاهده ليس سوى
خيال الماضي وأوقن انه لم يبق لنا من مجدنا الغابر سوى بقية آثار

هي شاهد عدل .

نعم قد احدثت تلك المدينة الزاهرة وتلاشى ما كان فيها من
عز وسلطان وجيوش لجبة ولم يبق منها سوى آثار صاغها الفن فجعل
منها خطباء تشيد دوماً بعزها التليد .

اجل ان الفن مع لطفه لجبار لانه خالد والخاود من شأن
الجبايرة والعظاء والامة التي تترك فناً باهراً هي امة خالدة لا تموت .

ها هي اهرام مصر قائمة خطباء على كرايعوم ، وها هو
« اكربول » اثينا وبقايا معبدها ، و « البانتيون » العظيم كلها شهود
عدل على مدنيتهم وتاريخهم السالف . وما روما باقل بلاغة وعظمة
عن اخواتها الماضية .

هذه البقايا البسيطة من الاعمدة المحطمة ، وتلك الاثار الجائمة
على رمال الصعيد وعلى اكربول اثينا وفي منعطفات روما هي في الحقيقة
ثروة الامة الثمينة ، وتاريخها الناطق عن مجدها الاثيل .

هذه الاثار حركت من نفوس ابناء النيل وسكان اثينا
وروما وغيرهم من الامم ذات المدنيات الغابرة ، نعم هذه الاثار ايقظت
في هؤلاء روحاً تدفعهم الى استرجاع مدنيتهم التالدة فكان ما ارادوا
ادركت ذلك فعدت بالذكري الى الاندلس انظر الى قرطبة

والزهراء ثم التفت الى الحمراء وقباها الزمردية الجميلة التي تقبلها الشمس باشعتها اذ تذكر لها عزها القديم ايام كانت عاصمة الناس اجمعين ؛ فتهوي عليها بقبالاتها الذهبية وتنثر عليها من دموعها النورانية صباح مساء ثم التفت الى اعمدتها الرخامية الساحرة ونقوشها الرائعة والى الاثار الباقية التي جمعت الى الفن والجمال ، تاريخ امة ومدنيتها ، فاشعر بقوة ورجاء بالحياة ، وعزم للعمل والتقدم فاقول لابناء قومي : ان امة لها هذا الفن وهذا التاريخ الحافل بالعظام وجلائل الاعمال ، هي امة لن تموت .

كانت تمر الايام وهيامي بالاندلس ينمو والرغبة تشتد لزيارتها والحج اليها وكما تراءت لي باحة الاسود واعمدها الرشيقة واروقة جامع قرطبة المهيبه ، وزهراء اشيلية الرائعة ، كانت تشور اشجان نفسي وتذكونارحني لزيارة ارض المجدومهبطالفن وودت لوتنزل قوة من السماء تحملني الى تلك الارض التي طالما حنت اليها روحي واشتتت شم شدى تربتها الزكية نفسي .

والآن ليسمح لي القارئ الكريم قبل ان احدهه عن جمال الفن العربي ان امهد له بكلمة مجملة عن اهمية الفن في حياة الامم وعن قيمته في جوهر التاريخ العام .

تعال بعض الفلاسفة : « لا تاريخ لامة الا بفنها » أليس
الفن هو المقياس لرقى الامم ؟ أوليس هو لغة الاجيال التي تكلمنا اليوم ؟
لاشك ان الفن هو الذي يغذي التاريخ ، بل هو التاريخ
المحسوس الذي لا يقبل حزبية ولا تدجيلا ولا تسطو عليه يد الفناء .
يأتي العالم الاثري بقطعة بسيطة من الحجر تحتمها يد انسان
منذ آلاف السنين فيقرأ فيها صحيفة صحيحة من التاريخ كانت مطوية
لانعرف عنها شيئا .

الفن العربي

وبعد فقد اثبتت لنا الاثار التي خلفها العرب ان لهم فناً
خاصاً هو نتاج مدنيتهم وعصارة ادمعتهم يدل بوضوح عن شخصية
معلومة ، ومدنية راهنة .

لقد تقلص ظل العرب عن اسبانيا وغيرها من امبراطوريتهم
الواسعة ودالت دولتهم في الغرب كما دالت في الشرق وتلاشى ما كان
فيها من عظمة الملك وقوة السلطان من ماوك وجيوش وما هناك
من حول وقوة .

اجل لم يبق شيء من كل ذلك ، مضى كأمس الدابر واسدل

عليه الدهر ستار الفناء فاذا هو نسي منسي ، لولا ان هناك بقية اثار
قائمة ومعالم شاخصة تناديننا صارخة بلسان الشاعر :

تلك اثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الاثار
لنأخذ اذن هذه الاثار ونضعها تحت الدرس نستجلي غوامضها
ونتفهمها كي ننفذ منها الى نفسيات ذاك الشعب وندرك تاريخ ذاك
العصر ودرجة تلك الحضارة .

ان الفن العربي الصريح بدأ مع الاسلام لانه لم يكن قبله
شيء يدعى فناً عربياً خالصاً بالمعنى الصحيح ولا سيما نحن نعرف قصة
ذاك العربي الذي كان يصنع آلهة من تمر فاذا جاع التهمها ، عندئذ
يمكننا ان نتصور درجة الفن يومذاك .

من اجل ذلك فان البحث يتناول فن المعمار فحسب . لو
بجشنا عن منشأ الفن العربي في البناء لوجدنا ان نهضته لم تظهر الا بعد
حين ، اي يوم اخذت المدينة العربية بالنضوج وبعد ان اختمرت فيها
تلك التأثيرات الخارجية الناجمة عن احتكاكها بامم ذات مدنيات
عريقة من اغريقية وفارسية وهندية ، لذلك كان لا بد لها من التمهض
بفن خاص بها يعبر عن صورة نفسها ويثبتها .

علمنا التاريخ انه لا يمكن لامة ما ان تبلغ درجة سامية من

المدنية الا ان تأتي بفن خاص بها ، لان الفن هو نتاج كل مدينة ووليد كل حضارة لهذا حينما بلغ العرب مكانة عالية من الحضارة اتحفوا العالم بفن عربي خالص ، وها هي آثاره منتشرة من الصين حتى تبلغ شاطئ المحيط الاطلنطي .

قد يقول قائل ان العرب لم يخلقوا فنا لهم بل اقتبسوا فنون الامم السالفة فانا أجيب : ان المدنيات كافة هي وليدة بعضها ، وان لا جديد تحت الشمس . فقد اكتسح العرب العالم واحتكوا بحضاراته فكان لا بد لهم من التأثر بها كما تأثر قبلهم الاغريق بالمصريين ، والرومان بالاغريق الخ وكذلك تأثر العرب بالحضارة الاغريقية والفارسية حينما استولوا على بلديهما وهذا التأثير يظهر لنا اثره في بدء نهضتهم الادبية والفنية . وهذا ما نراه بادياً في القوس والاسطوانة وتاج العامود وفي النقوش في عهدها الاول . ولكن لو تأملنا هذه الاشياء ودرسناها تحت ضوء المعرفة الفنية لوجدنا ان العرب لم ينسخوها نسخاً ميكانيكياً جافاً كلاب هم اخذوا الفن واستساغوه ثم أخرجوه للعالم بشوب عربي جميل يسير فيه الروح العربي .

وما هو جدير بالانتباه الحُصْب العجيب في النسق العربي فقد برهن ابن الجزيرة عن فن كبير وبعد خيال في فنه لم يعرفه غيره ممن

تقدموه فهو قد ابتكر لكل بيئة او بلد نزلها نسقاً خاصاً يتناسب مع طبيعة البلاد وجمالها ورغم ما فيها من تنوع واختلاف فقد اسبغ عليها طابعاً خاصاً هو الطابع العربي والشخصية العربية . وقد اسس لها خمس مدارس او اصناف : المدرسة السورية والمصرية والمغربية والفارسية والعثمانية ثم الهندية فزى امامنا مجموعة رائعة من التنوع لو تأملناها بجموعها لوجدناها عربية بحجة .

الفن الاندلسي

ومن هذه المدارس الخمسة نشأ النسق الاندلسي موضوع بحثنا وهو ارتقى ما بلغه العرب في فن البناء لانه يمثل الذروة للحضارة العربية . والفن الاندلسي مر في ثلاثة ادوار اساسية : دور الفتح او النهضة ، دور الانتقال ثم دور السقوط وفي كل من الادوار الثلاثة نرى صورة ناطقة عن النفس العربية في تلك الديار .

من الآثار البارزة للدور الاول جامع قرطبة الشهير الذي انشأه الخليفة الاموي عبد الرحمن الاول ، ويعد مسجد قرطبة اعظم جامع في العالم وآية من آيات الفن المعاري ، يقصد زيارته السياح من

اقاصي البلاد للتملي بروائع فنه .
ثم دور الانتقال الذي يظهر ماثلاً في قصر الزهراء (الكازار)
في مدينة اشبيلية وهو يمثل الدقة واللفظ والاناقة شيده محمد الناصر
في الجيل الحادي عشر ثم أكمل في الجيل الثالث عشر .
حينما سقطت اشبيلية في زمن حكامها بن عباد تمر كز الفن
في غرناطة حيث لمع زماً ثم دفن هناك حيث دفنت الحضارة العربية
في الاندلس مع حكامها بني الاحمر وبني نصر الذين انتقضت بسقوطهم
دولة العرب في الاندلس عام ١٤٩٢ .

تاريخ الاندلس

وقبل ان نذهب الى الاندلس لابد من ان نعرض امام القارى .
لمحة سريعة عن تاريخ تلك البلاد رغبة في ايفاء البحث حقه واكساب
الموضوع بهاء .

الاندلس احدى مقاطعات اسبانيا . واسمها في الاصل
«وندولوسيا» نسبة الى الوندال او الفندال الذين استوطنوها بعد
الرومان فلما فتحها العرب سموها الاندلس .
كانت اسبانيا من جملة مملكة الرومان القريبة الى القرن

الخامس للميلاد ، فسطا عليها القوط وهم من القبائل الجرمانية البربرية التي نزحت من الشمال الى اواسط اورو با طلباً للمرعى والمعاش ، ثم استولوا على اسبانيا في القرن الخامس وانتزعوها من الرومانيين وانشأوا فيها دولة قوطية انتهت بالفتح الاسلامي سنة ٧١١ م .

في سنة ٨٩ هـ عين الوليد بن عبد الملك القائد موسى بن نصير اللخمي عاملاً لأفريقية ، وكان موسى قائداً جريئاً وسياسياً قديراً ذا خبرة ودهاء . فقبض على ناصية الحكم بعزم ونشر في بلاد افريقية الامن واقام العدل فجن الحال وازدهرت البلاد .

اصبحت افريقية بعد الحكم الاسلامي تتمتع بنعمة العدل والحرية في حين ان الاسبانيين في الجزيرة المجاورة كانوا يثنون تحت نير القوط الثقيل وكانت عاصمة القوط مدينة طليطلة التي كانت عامرة بالحصون والقصور والكنائس وكانت مركز الدين والسياسة .

وقد عاب المؤرخون على القوط عدم امتزاجهم بالاهالي واستخدامهم الانظمة الرومانية القديمة التي ترهق الشعب وترضي طبقة الاشراف فوق انهم كانوا منغمسين بالملاهي والفجور .

يقول المؤرخ جيبون ان سهولة استيلاء العرب على الاندلس سببها شجاعتهم النادرة اولا وهدم القلاع والتحصينات ، هدمها مارك القوط

انفسهم حباً باخمد الفتن التي كانت تنشب بينهم ولذلك رأيت المدن
الاسبانية تسلم كلها للعرب بدون قتال الا « قرطبة » و طليطلة »
والحقيقة ان العرب ما كانوا ليستولوا على سبته التي يفصلها
عن الاندلس مضيق جبل طارق بتمك السهولة لو لم يدع حاكمها الكونت
يوليان موسى بن نصير مولى بني امية بافريقيه للدخول الى المدينة
والاستيلاء على الاندلس وقد فعل ذلك لاسباب جمه ، هو ما سمعه
عن عدل العرب في البلاد المجاورة وما يراه من ظلم وفساد من حكام
القوط ، ثم انتقاماً من الملك رودريك الجالس على العرش الذي انتهك
عفاف ابنته في البلاط الملكي في طليطله .

كان ملك الاسبان عام الفتح الملك لذريق كما كان يسميه
العرب تولى الملك عام ٧٠٩ ولم يكن من العائلة المالكة ولكنه اختلسه
من عائلة « ويتزا » او غيطشه القوطية التي اسسها « الاريك » .
لذلك فان لذريق ترك ابنا غيطشه واتباعهم ناقين عليه .
وكانت اسبانيا تنقسم الى ولايات او (دوقيات) يتولى كل منها حاكم
يسمى الدوق او الكونت ويرجعون جميعاً الى الملك .

وكانت العادة ان يعيش ابنا الدوقات بقصور قريبة من قصر
الملك وبلاطه في طليطلة وينشأون في البلاط الملكي معاً يتعارفون

ويتأدون فيشبون على ما يرضاه الملك .

وكان للكونت يوليان حاكم « سبتة » فتاة تسمى « كافا » فتاة رائعة الجمال ارسلها والدها الى بلاط الملك في طليطله لتلقى مايليق بها من التربية بين كرتيات العقائل والاشراف فملك جمالها القتان قلب الملك لذريق وقاومته الفتاة ولكنه اغتصبها فاخبرت اباه بذلك العار فاقسم بالانتقام وبات يرقب الفرص خلال الحوادث السياسية للقضاء على الملك المختلس - الفاجر .

هذا من جملة الاسباب التي دفعت بالكونت يوليان ان يكتب الى موسى يستحثه لفتح اسبانيا .

ولكي يتحقق موسى من صدق المشروع جهز خمسمائة مقاتل بقيادة طريف ابن مالك فعبروا البحر من سبتة الى البقعة ، وسميت بجزيرة طريف ٧١٠ م . وقد لقوا من اكرام المسيحيين ومن خيرات الجزيرة ما حمل موسى ان يجهز سبعة الاف مقاتل من العرب والبربر بقيادة طارق بن زياد الليثي احد ضباط البربر وحاكم طنجة ، وكان طارق جندياً مقدماً فعبر البحر ونزل بالبقعة التي سميت الى الآن بجبل طارق .

وحينما بلغ الخبر لذريق ادرك جسامته الخطر فجهز جيشاً

ضخماً يزيد على مائة الف محارب ، وارسل موسى نجدة الى طارق حتى اصبح عدد جنوده اثني عشر الفاً فاصطدمت جنود العرب بشرازم من القوط في مكان يدعى البحيرة فانهمزمت وتوغل العرب في قلب الجزيرة .

وعلى قيد فرسخين من قادس شمال (سيدونيا) على ضفاف نهر وادي « لكه » تلاقى العرب والقوط في ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ وفي اليوم الرابع نشبت بينهما معركة عامة . شعر فيها العرب بثقل وطأة العدو وراعتهم كثرتهم وامتلاء السهل من قتلاهم ، فاخذ طارق يشجع رجاله فالتقى فيهم خطبته الخالدة :

« ايها الناس ! اين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو امامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر . واعلموا انكم في هذه الجزيرة اضيع من الايتام في مأدبة اللثام . وقد استقبلكم عدوكم بجيوشه ، واسلحته واقواته موفورة ، وانتم لا وزر لكم الا سيوفكم ولا اقوات لكم الا ما تستخلصونه من ايدي عدوكم . واني لم أحذركم امراً انا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة ارحص متاعاً فيها النفوس ، ابدأ بنفسي . واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالارفة الالذ طويلا . فلا ترغبوا بانفسكم عن نفسي فسا

حظكم فيه باو في من حظي . . . » الى ان يقول :

« ايها الناس ، ما فعلت من شي ، فافعلوا مثله ، ان حملت
فاحموا وان وقتت فققوا ثم كونوا كهيئة رجل واحد في القتال . الا
واني عامد الى طاغيتهم بحيث لا انهيه حتى اخالطه وامثل دونه فان
قتلت فلا تهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتمشوا وتذهب ريجكم
وتولوا الدبر لعدوكم فتبدوا بين قتيل واسير . واياكم والوهن والخوف
وهانذا حامل حتى اغشاء فاحموا بجملي . »

وما فرغ طارق من خطبته النارية حتى فاضت نفوس جنوده
اقداماً ففتكوا بالقوط فلاذ منهم بالفرار كثيرون والباقون وقعوا
اسارى وما زالت قوات العرب تتقدم وتفتح المدن وتستولي على
المقاطعات حتى دبت عقارب الحسد الى قلب موسى من نجاح طارق
فارسل يأمره بالتربث ريثما يحضر . وقصد موسى الجزيرة في قوة
كبيرة وتعاون وطارقاً على اكتساح سائر اسبانيا .

ولا ريب في ان العرب ساروا باعتدال وتسامح مع المسيحيين
المغلوبين اذ سمجوا لهم بالقيام بشعائرهم الدينية وان يحاكمهم قضائهم
واشترطوا عليهم الجزية فقط وضمنوا ارواح امراء القوط ونسائهم
وممتلكاتهم وكان اذا حدث شجار بين مسلم ومسيحي يعطى الحق

غالباً للمسيحي وهذا ما قاله المؤرخ « سيديليو » ونشأ بسبب ذلك تفاهم بين الغالب والمغلوب وشاع زواج العرب بالاندلسيات وزواج امراء الاسبان بعربيات كما فعل الفونس السادس اذ تزوج بزايدة ابنة امير اشبيلية ، والنتيجة انه لولا تسامح العرب لم تبقى امة مسيحية محتفظة بدينها ولغتها ومقدساتها »

ظلت الاندلس منوطة بعمال الدولة الاموية من عام ٧١٣ م الى ٧٥٩ الى ان جاء من الشرق هارباً معاوية بن هشام عبد الملك المسمى بالداخل فاستلم الاحكام وتولى خلفاؤه من بعده الى سنة ١٠٢٨ م بعد ان احيوا البلاد ونشروا لواء العلم وخدموا المدنية وبعثوا الفنون . غير ان الملك تفرق بعد ذلك بين ماوك الطوائف وتلاههم المرابطون والموحدون حتى ماوك غرناطة من بني الاحمر في الجيل الرابع عشر حيث خرج العرب نهائياً من اسبانيا بعد ان ذبحوا واضطهدوا بكل انواع العذاب جزء ما قدموه من خير البلاد .

ان العرب قد جاؤا عن اسبانيا غير انهم خلفوا فيها مدينة زاهرة واثاراً ناطقة على مر السنين ، مدينة وضاحة كنور الشمس قوة وبهاء فهي تنشر شعاعها دوماً على العالمين .

قرأت هذا التاريخ المجيد ولمحت من خلاله شيئاً عن ماضٍ

جليل وفن رائع فدهشت وولدت في الرغبة الحارة لمشاهدة هذه الآثار الخلابه التي ادهشت الغربي قبل الشرقي ، فبت ارقب القرص بنفس عطشى وروح ملتبهه . واخيراً شاء الحظ ان يتسم لي بعد العبوسه فقصدت باريس كعبه العلم والفن ، قصدتها حباً بالاطلاع على ما وصل اليه الفن من التقدم وما بلغه من التجدد .

واني لا أرى بأساً من بسط صورة موجزة عن الحركة الفنية الحاضرة في باريس اتماماً للفائدة :

الفن الغربي

باريس اليوم هي عاصمة الفن الحديث بلا جدال ، ومحط رحال ارباب الفن من مختلف الامم ولا بد لصاحب الفن والذي يروم درجة رفيعة فيه ان يزور العاصمة اذ يرى بجانب ما فيها من متاحف ومعارض وآثار نادرة يرى من تنوع الفنون وضروبها وتعدد مذاهبها ، ما لا يمكنه ان يراه في اي بلد آخر . فباريس هي لابناء الفن في عصرنا « كسوق عكاظ » في الجاهلية . ففيها يشاهد المرء الفن الافرنسي والايطالي والانكليزي والهولاندي والصيني والزنجي وما

هناك من فنون امم كثيرة حيث يظهر ما في فنونها من تباين جلي يدل عن اختلاف عظيم في الامزجة والشعور والعقلية فكأنني كنت أرى اخلاق تلك الامم معروضة على لوحاتهم والفنان اصدق معبر عن اخلاق امته وعاداتها .

ان وجود الانسان في هذا الوسط لا يخفى ما يكسبه من فائدة كبرى فتغزر مادته وتقوى قوة الخيال عنده ويصبح لديه ثروة فنية عن مختلف الفنون الاخرى هي له مكتبة غنية يتصفح مجلداتها اذا ما دعت الحاجة .

ان عندنا المدرسة الافرنسية وثورتها الاخيرة والتي قبلها وما طرأ عليها من تطور وما نالها من تجدد حري بالدرس الشديد . فهناك جماعة المتأثرين الحساسين اي الانطباعيين التي قامت على المدرسة القديمة وكان على رأس الثائرين مونه وسيزلي وديغاس وبيزارو وسيزان ورينوار وغيرهم .

ان هؤلاء الفنانين اعلنوا الثورة الفنية على المدرسة القديمة ، كما اعلن قبلهم ميرابو ودانتون وروبيسبير وكثير غيرهم الثورة الديموية على الملكية العتيقة . ولكن في الثورة الفنية لم تجر الدماء انهياراً ولم تملأ القتلى الساحات ولم تهدم قصور ولا قلاع ، لانا اريقت الكثير

من الالوان ومزقت امتار من القماش والاوراق وتكسر عدد من
الريش والاقلام وهدم الجوع المعد وبات الكثيرون على الطوى
وصبروا على الفقر والاذى ، كل ذلك نصرة لمبدأ جديد واثباتاً
لفكرة حديثة .

ان الامة التي تطلب التجدد وتسعى دوماً وراء البحث هي
الامة التي تود الحياة والبقاء .

وجدت هذه الطائفة ان الفن قد مني بشروط تقليدية سخيفة
كادت تقضي عليه فاعلنوا ثورتهم بايمان وعزم وكثير منهم قضى ولم ير
نتيجة المعركة . ثم عقبهم جماعة آخرون توسعوا اكثر من سلفهم فكان
منهم المنقسمون ، واصحاب المستقبل وغيرهم من طرقتى فالفهم في
الامر انها حركة عظيمة كان لها اثرها في كافة نواحي حياتهم الاجتماعية
فطبعها بطابع خاص عدا انها سببت حركة مهمة في عالم الصناعة
والتجارة لا يمكن نكرانها .

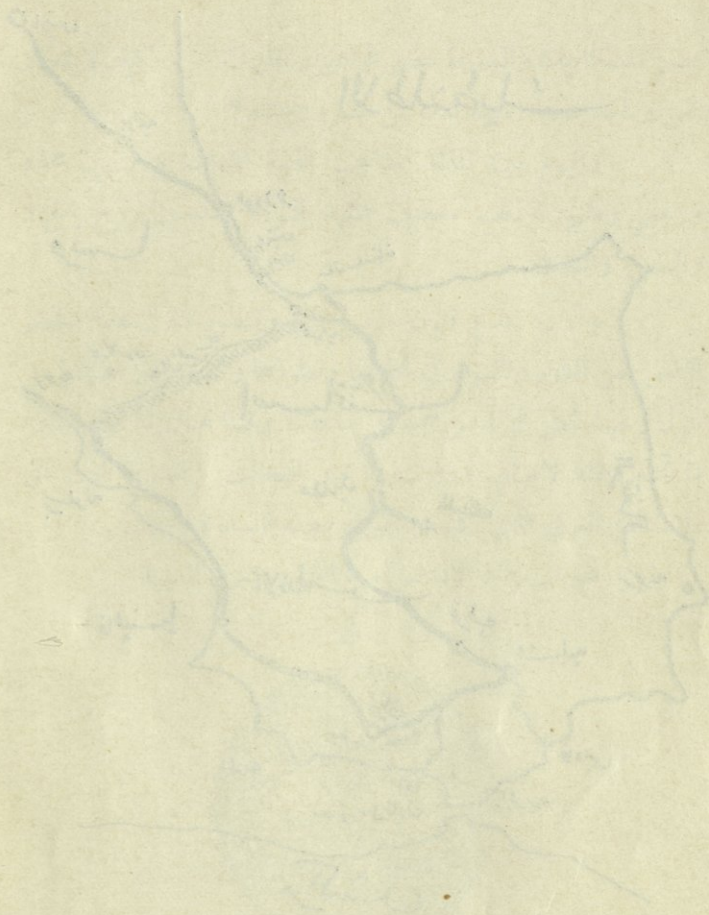
ونهاية القول ان هذه الثورة لا بد منها لانها نتيجة عقلية
حديثة وعصر جديد ولا يمكن للفن ان يثبت امامها ، انه تيار قوي
جارف . قد وجدنا الفن في التاريخ يجاري الامم بسيرها ويترك لنا
اثراً صادقاً عن حياتها . وجملة القول ان عصرنا عصر الحديد والكهرباء .

عصر الميكانيك والسرعة عصر الراديو والطيران . . . كيف لا يتطور
الفن ويأخذ صبغة زمنية تدل عن عصره وبيئته ؟
واليوم بين تلك المذاهب الفنية المتعددة ما بين مجدد
ورجعي ومتهور ، نقف معجبين بمشهد الثورة مقدسين روح الجهاد
والسعي والبحث .

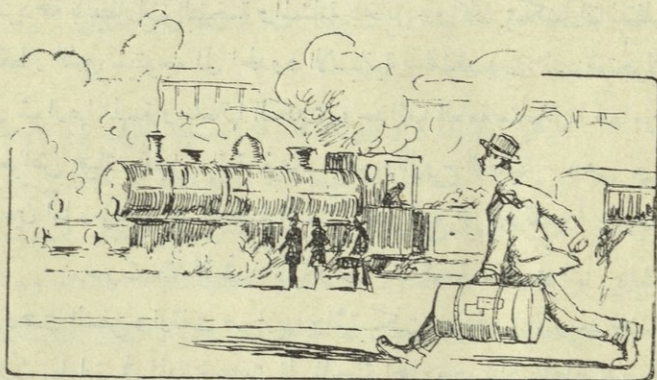
والآن لنعد فنون باريس تشور وتتطور لنترك هذا الحضم
الزاهر من العلوم والفنون في تجاربها وتطورها ولنقصد الى اسبانيا بل
لنول وجهنا شطر الاندلس مدفن مدينتنا وفننا هناك لنا فن كثيراً
ما تحدث عنه الاغراب ورويت لنا عنه العجائب . لتسرع اذن الى
بلاد الفن العربي الذي اسكر العربي بجعله فانساه فن بلاده .
هيا الى بلاد الاندلس مهد الفن ومشرق المدينة .







وكانت الساعة التاسعة مساء ١٧ تموز عام ١٩٣٠ حينما صفر
القطار وتحركت عجلاته من محطة « كاي دورساي » بباريس .
عندئذ تأكدت اني هذه المرة مدرك ذاك الطيف البديع الذي رافقتني
منذ الطفولة .



في طريقي الى الاندلس

في عيد من السرور سار القطار يشق حجب الظلام ، سار
تحيطه افراحي وتطوف به مسراتي وترقص امامه نفسي وقد سبقته
احلامي نحو الاندلس وقصورها الخيالية ، سار القطار وموكب الآمال
فعلى بركات الله .

في ضواحي « بوردو » ففتح الفجر عيني على سهول خضراء
رطبة فرشت ببساط من الكرمة كانت عناقيده لا يزال نائماً الواحد
على الآخر وقد غشيها الصباح بدموعه فسكنت هادئة مطمئنة .
وعند الساعة السادسة صباحاً كان القطار في محطة « بوردو »
المزدحمة بالقطارات الضخمة والممتلئة دخاناً . وكان يمكننا ان ننتظر
القطار الذي سيتوجه الى الحدود الاسبانية لذلك قصدت المدينة متجولاً
في شوارعها المهمة وساحاتها الكبرى وحدائقها العامة متأملاً ما فيها من
احواض جميلة وتماثيل رائعة تفيض بالفن وبالروح الوطنية . وهي على
نوعين اما رمزية واما شخصية اقيمت لرجل نابغ او عالم تقديراً لجهوده
سرت متأملاً في بناياتها ودار الحكومة ماراً برفقتها حيث
ازدحمت السفن وارتفت صواريخها واشتبكت جبالها . وبعد قضاء
ثلاث ساعات في المدينة عدت الى المحطة احمل من لطف اهلها اثراً
طيباً لم اعرف لاهل باريس مثله . انما مظاهر المدينة لم تترك في نفسي
العظمة التي كنت انشدها وشتان بينها وبين باريس . وباريس واحدة
في هذا العالم .

تركت بوردو تحت وابل من المطر لن انساء ما أمطرت
الدنيا . . . وما كاد يتعد القطار عنها مسافة يسيرة حتى طلعت علينا

الشمس بانوارها وضحك الجو وبدت الحياة على وجه الطبيعة و كانت
ترتدي ثوبها الاخضر .

هنا حرج كبير من الثردين ، وهناك سهل فسيح تلاشى مع
الافق او انتهى بهضاب قليلة . وهكذا قضينا زمناً نتصفح فيه من
بدائع الطبيعة مجموعة ثمينة بل شريطاً جميلاً وضعه فنان حاذق . وقد
مررنا ببلدان كثيرة منها « بياريتز » ..

ها هي (بايون) او بايونه كما كان يسميها العرب يوم تزلوها
(من غير اليوم . . .) ، بدا لنا البحر وله زرقة قوية تفرح قلب من
لم يره من زمن ، فسرحت نظري للتأمل بجباله ولكن القطار السريع
لم يمهلي بل هرول نحو الحدود الاسبانية Iron - Handaya وهنا
لا ارى من حاجة لاطالة البحث لمعرفة الفروق بين البلدين فالميمات
والمعاملات واللغة تنبئك الخبر فتعيدك الى الشرق .

وهذه الكلمات الاسبانية ترن في مسمعي ولا تتخطأ .
وهنا بحثت في زوايا ذاكرتي على اعثر على بعض كلمات اسبانية كنت
درستها قبلا . انها قليلة جداً فما العمل ؟ ولكني وان لم ادرس مهنة
الصيدلة فاني مزجت هذه الكلمات بشيء من الايطالية والافرنسية

فاتت بتركيب لغوي عجيب ولكنه قام بالحاجة .
وكنت لا اعرف اسم فندق آوي اليه عند وصولي لمدير يد
لذلك قصدت مكتب الاستعلام .

لله ما أجل هذه الابتسامه واحلى هذه الاخلاق ؟ انه لشاب
اديب ذلك الموظف في المكتب . وقد أخذ يشرح لي بلطف وتأن ،
وزودني بما يلزم من التعليمات .
شكرته فودعني بايناس وانصرف .

ان المرء يشعر حالا باختلاف في البيئه ، فالبنائيات والعادات
والهيات حتى الطبيعة فانها تختلف .

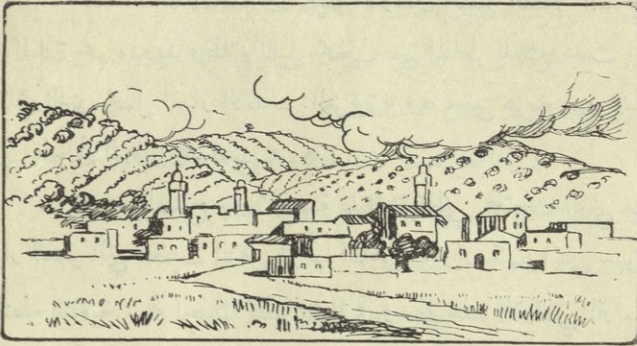
ثم قلت في نفسي لاذهبن الى بلدة « آرون » فلعل لنا بها
ما يسر . وفي الحقيقه انها مع صغرها جميله نظيفه صحية ، يرى المرء
بها كل ما يدعو الى البهجة . فيها كثير من بيوت الاصطياف *Villa*
على غاية من الظرف وجمال الهندسة وكذلك كثرت فيها المقاهي واعتقد
انها احدى عواصم القرار .

لله ما أجل هذا الجو وما اصفاه ! وما ابهى نور الشمس .
انني اتنشق الهواء النقي بل رثي لانني بحاجة اليه بعد هواء باريس
الممزوج بالدخان الدائم .

عند الساعة الثامنة والدقيقة الاربعين ابتعد القطار السريع
عن البلدة نحو مدريد وظلام الليل يحجب عني المناظر لذلك رجعت الى
كتابي الذي يحمل اخبار الاندلس العزيزة ، وما مضى هزيع من الليل
حتى فاجأني النعاس فاسلمت له اجفائي .

وعند الصباح جاءت نسمة عليلة توقظني ففتحت عيني على
انوار الفجر التي خضبت الافق بالوانها الباهرة ، وارسلتها على سهول
الخنطة النامية . ثم اخذت تظهر علينا في وسط هذه الاراضي المترامية
قرى عديدة وفقيرة . وها هي قرية « مدينة الحقل » وهي بجالتها
كذلك لانها واقعة في منبسط من الارض بين السهول والمزارع ، وقد
بدا لي من منظر هذه القرية انها كغيرها من القرى التي مررنا بها ،
كانت مدنا عامرة يدل على ذلك كبر المساجد وكثرتها وتعدد مآذنها .
اما هذه الدساكر فقد تبعثت بيوتها البائسة واكثرها من
« اللبن » والآخر وامتدت سطوحها بِنُطوط افقية تتراكم بعضها فوق
البعض وارتفعت مآذنها الدمشقية التي امتزجت مع هذا الجو الشرقي
وتلك الالوان الحية .

يعلم الله ان قوة التشابه جعلت في نفسي شكاً فظننت ان
القطار ضل الطريق فسار الى الشرق ، الى سوريا ، الى اراضي دمشق



قرية اسبانية بين احراج الزيتون

بين قراها وسهولها .

لقد فهمت الان السبب الذي حجب الى العرب الغزاة سكنى
تلك البلاد فانهم ما رحلوا من سوريا الا الى سوريا .
اجل لا يمكن لانسان عرف الشرق وسوريا خاصة الا ان
يشعر امام هذه المناظر انه في سوريا ، في سهول حمص وبعبك . لون
التربة ، طرز الزرع ، صفاء السماء ، لطف النسيم ، حرارة الشمس ،
شكل القرى وما ارتفع من مآذنها ، ولا تعجب يا صاحبي من وجودها
هناك فهي من بقايا العهد العربي .

كان القطار يتقدم وكان التشابه يزيد فاشعر كانني عائذ الى
بلادي ولكن المتكلمين قربي بالاسبانية كانوا يزيلون وهمي .
وهنا قرية « افيللا » التي خلت انهار السويدا لتشابه لون
حجارتها الصوانية السوداء وهندسة بيوتها الخشنة وقد أحاطت بها
اشجار زيتون قديمة .

وعند الحادية عشرة اخذ القطار يسير بين مساكن مدريد
الانيقة . وها هي المحطة غاصة بالمسافرين والقطارات، وبالطبع وقفت
برهة اتفرج وأتأمل بما كان حولي من هيئات غريبة واشكال جديدة
ولغات مختلفة .

وسارت السيارة تشق الشوارع ما بين متسعه وضيقه ، وقد
اكتظت بالناس والباعه الذين خرجوا ببضاعتهم مقداراً عن الخوانيت،
وهنا تذكرت جلاوزة البلدية عندنا . . .

ولحسن الحظ اشعر في اثناء السفر بنشاط غريب فما كدت
اصل الى مدريد بعد سفر طويل حتى اخذت حالاً بالتجوال في الشوارع
الرئيسية ، فاذا هي مدينة حديثة حوت اسباب الراحة ذات طرقات
رحبة نظيفة مرصفة ومنها المزفت ازدحمت فيها الجاهير والمركبات
من سيارات وعربات وقطارات كهربائية وسائر اسباب المواصلات

الحديثة حتى انه يوجد فيها « مترو » .
ثم اجلت الطرف في بناياتها العظيمة فاذا هي ذات هندسة
حديثة معتدلة ومنها ما هو على الطراز الاميركي المعروف بناطحات
السحاب ومن البنائات العظيمة بناية البريد والتلغراف ووزارة البحرية
وبنك « بلباو » والذي يلفت النظر في تلك المدينة كثرة المصارف
والحدائق العامة وسعة الشوارع ونظافتها ، وللنظافة في هذا البلد حظ
واقر ما كنت اتوقعه ، لذلك فصحة الناس على ما بدا لي طيبة والذي
غلب على لون القوم هنا هو اللون الحنطي والعيون السوداء العربية ،
والابتسامة العذبة وحسن الحفاوة بالغريب والكرم ، واظن ان هذه
من بقايا ما ورثوه عن العرب ، ومع ذلك فعندهم الكثير من التهاون
والاتكال الشرقي المشهور وهذا ايضا اعتقد انه من « التركة » . واما
اللطف وسعة الصدر فقد نالا من نفوس القوم قسطاً وافراً .
ولا بأس من ذكر هذا الحادث مثالا عن حسن معاملتهم
وجبههم لبلادهم :

قصت يوماً زيارة المتحف الوطني وخشية الغلط سألت شاباً
حسن الهندام نبيل الوجه عن المتحف فابتم لي وقال : هو ذلك
— مشيراً بيده للبنية المقابلة — ثم زاد قائلاً : انا اقصد ايضاً التحب

ان نترافق ؟

وعندما افترقنا بعد الزيارة عرض علي ان يرافقني في المدينة
وكان يوم احد قائلالي : «وجدتك غريباً وذا فن تهملك معرفة
الاماكن الاثرية في البلد فاذا احببت انا لك» .
حقاً قد دهشت من هذه المعاملة الطيبة واللطف المتناهي ،
طبعاً اجبته : بسرور .

ومن ثم سرنا نخترق الشوارع الكبيرة وكان يدلني على
على مراكز الحكومة والشركات ودور السينما والتمثيل . وقد لفت
نظري « الجريد » سعف النخل على نوافذ البيوت والقصور فعلمت انهم
يعتقدون انها تمتع الشيطان من دخول البيوت حيث توجد بنات ابكار .
وهكذا علمت شيئاً جديداً ذاك ان ابليس يفر من سعف النخل !
ثم قصدنا الى خارج البلدة واماكن النزهة حيث غصت
المقاهي بالجالسين الذين يتناولون المنعشات ويستمعون الى الحاكي وهناك
بساتين مليئة بالعائلات .

ثم مررنا بميدان صراع الثيران وهي من الالعب التي اشتهر
وولع بها الاسبان حتى الجنون ، وقد رأيت انها صورة صحيحة عن
الملعب الروماني (آرين) بما يمثل فيه من قساوة وتوحش .

وقد عكفنا بطريقنا على بعض الاحياء المتوسطة فاذا الفقر
والبوئس يملآن الارض ولم تستطع ضخامة بعض القصور حجبتها .
عدنا نسير في المدينة ونشاهد المقاهي وقد طفحت بالزبائن
المداومين وقد جلسوا يلعبون الترد ويتناولون المرطبات لتخفيف الحر
الذي اضعف همتهم .

لم ننس ان نمر بطريقنا امام قصر الملك القائم على مرتفع يطل
على سهول فسيحة ومأونة ويقال انه بني على انقاض مسجد قديم . وعلى
كل فهذا القصر رغم ضخامته خال من جمال الهندسة ومثله كثير
عندما وصلنا الى ساحة « الشمس » الفسيحة المزدهجة بالناس
وقف الرفيق امام انوارها المتلائية بمختلف الالوان وقبل ان يودعني قال
لي تلك الكلمة وهي في الحقيقة درس عال في الوطنية :

— ارجو منك يا سيدي متى سنحت لك الفرص بالتحدث عن
اسبانيا ان تذكرها بكل خير . فودعته وانا افكر كيف يفهم الناس
حبة بلادهم ويسعون لرفع اسمها عالياً .

لنترك الان شوارع مدريد وساحاتها ، لنترك الناس في اعمالهم
ولنذهب لزيارة متحف برادو الشير ولكن قبل الدخول اليه لا بد
من الوقوف على عتبة وارسال هذه الكلمة :

لقد عرف التاريخ لاسبانيا في مطلع القرن السادس عشر مجدداً لامعاً كانت فيه صاحبة القول النافذ وقد قبضت على صولجان الحكم كما استولت على ناصية الفنون فخفقت فوقها اعلام مدينة ذات ثقافة عالية تناولت كثيراً من النواحي ومنها الناحية الفنية التي سارت بها اشواطاً، فنبغ فيها كثيرون من الفنانين والادباء^(١) الذين رفعوا راية العلوم والفنون وتركوا على لوحاتهم من آثار ريشتهم ملجأً وتحفاً هي لليوم حجة لارباب الفن وعشاق الجمال يقصدونها للتغذي من عذب موردها وطيب عنصرها، ويكفيها فخراً وفيها النابغة وابو الفن الحديث « فيلاسكز » الذي طارت شهرته واضحى اسمه مقروناً بالنبوغ والعبقرية تاركاً لامته فخراً لا تبليه الايام .

وقد يرى الزائر امام متحف « البرادو » تمثاله البروتري يمثله جالساً يحمل بيده ريشته والوانه، ومن الجانب الاخر تمثالا لزميله النابغ موريللو وقد كتبت على قاعدة الاثرين هذه العبارة :

(١) مثل : فيلاسكز وغويا وميريللو وغراكو والعلامة العظيم سيرفانتس وكثير غيرهم .

« اعترافاً لمن خلدا بريشتيها تاريخ امة الاسبان » .
ذكريت فيما مضى شيئاً عن النهضة الفنية ومن اثرها بضعة
متاحف واهمها « برادو » ذو الشهرة العالمية الذي يمتوي كثيراً من
الصور الرائعة وهو مخصص للفن القديم ، لذلك هرعت لزيارته وللاستمتاع
بما ضمت جدرانها من التحف العوالي وحباً بالاستفادة قصده باكراً .
على مقربة من وسط المدينة في حديقة واسعة الارزاء كثيرة
الاشجار فياحة الازهار تعددت فيها الاحواض ترسل مياهها باشكال
جذابة اقيم المتحف . وهو بناء ذو طابقين يوناني الطراز غاية في
البساطة ، ولمدخله اعمدة (دوريك) يرتاح لمجموعها النظر .
وبعد صعود بضعة درجات مرمرية ترى فسحة مستديرة ، ثم
انت في قلب المعرض وامامك دار رحبة استطالات ، سكب النور
عليها من على وقد سقفت بالترجاج وعلى جانبيها غرف كثيرة .
لننظر الآن الى هذه اللوحات الجذابة ، هذه صورة من صنع
« موريللو » الطفل مع الحمل ، وهذه صورة من صنع غورا ، وتلك
صور غراكو وصور من ريشة ريبارا وكثير غيرها .
لندخل الى الغرف الكثيرة التي خصت لرسوم النابغة
فيلاسكينز ولم أكد ادخل وانظر الى رسومه حتى دهشت ، انني امام

فن عظيم . حقاً انه لنا بعة عصره ، وهو المصور العبقرى ، بل هو الرسول الاول للفن الحديث ، ترى في صورته متانة في الرسم ولباقة وحسباً في التأليف وتناسقاً في المسافات وقوة في الالوان وبساطة بالغة في العمل روح سماوية تجري على لوحاته يشعر الناظر اليها انه امام فنان قدير ترك له الفن زمامه فغدا يتصرف به كيف يشاء .
لنلق الان نظرة سريعة الى رسومه ونقابلها برسوم زميله
« موريللو » .

ان رسوم الاول تنبى عن رخاء وهناء في حياته ، فالوانه زاهية بهجة ، في تأليفه رحابة تشرح الصدر وفي خطوطه اناقة ولطف وقد ولع بالنور فسكبه على لوحاته التي دلت على سرور وغبطة في نفس المصور وظهرت ابتسامته جلية على شفاء اشخاصه ولمعان عيونهم وبدت على وجوههم امارات النبى والشرف لان هذا المصور كان يعيش في بلاط الماوك وقصور الامراء وبين اهلهم وذويهم وكان من المقربين لديهم لذلك تلمس في صورته نفسية هؤلاء القوم وتعرف ما في وجوههم من نضرة ونعيم وتشعر بترفهم وتنظن انك تجلس معهم وتجادلهم .

اما زميله « موريللو » فقد كان بائساً معدماً يعيش مع البائسين

والمعدمين فلا ترى في رسومه سوى اولئك الاشخاص التعماء بالبهتهم
الرثة القذرة قد آووا الى كهوفهم المظلمة كنفوسهم يلتهمون فضلات
العيش والفاكهة . ومع ذلك فقد كان فيلسوفاً في حياته يعزى نفسه
بتصوير العذراء المتألمة والمسيح المصابوب والجو وراءهما مكفهر .
فكان المصور (موريللو) التاعس يرى نفسه في تلك المشاهد فيتعزى
بها ، ولو تمنع الانسان في الوانه وحلل نفسية (اشخاصه) اي نماذجه ،
لوجدهم من الطبقة الفقيرة التي غلبت عليها الفاقة والبؤس بعكس صور
صاحبه التي تمثل صورة الارستقراطية با فيها من بذخ ورفاه ولا عجب
فالغنان الحقيقي هو ذلك الذي يضع نفسه على لوحته ويبيدي شعوره
مستمداً من البيئة والزمان اللذين يعيش فيهما فهو مرآة الاجتماع الامينة .
وصور (فيلاسكينز) كثيرة هناك ورائعة معاً منها صور
تاريخية ومنها صور هيئات اشخاص . وهذه الصور قد رسمت بمقدرة
وسهولة غريبة .

ساعات قضيتها هناك مفكراً تاركاً روجي تترج مع نفوس
اولئك الفنانين بما كنت اراه امامي من آثارهم . فادركت ان الفن
الحقيقي هو ما يتعدى المادة وانه لا يرى في الرسم والالوان والقماش
وسواها الا عواطف وتاريخاً وعظمت كبيرة بل لغة تنطق بوضوح عما

يكنه صدر المصور من تأثيرات نفسية فيخلد بريشته تاريخ امته ومجد بلاده . وان ما تخطه ريشة المصور وبراءة الاديب خالد علي مر العصور وكر الاعوام .

ملأت جعبتي بما استطعت ثم أفلت قاصداً متحف الفن الحديث وفن (دور الانتقال) ثم المكتبة الوطنية .

وما كدت اصل حتى جذبت بجمال السلم المرصمي ، فدخلت الطابق الثاني حيث صور (دور الانتقال) هي كثيرة وجميلة لمصورين مشهورين منهم روزالي وبراديلابلازانيا ، ومن الاحياء المشهورين سورولا وزولوفا وبيرمانكو وغيرهم .

وكأني بفناني الاسبان الحديثين ادركوا هذا النقص فسعوا لاصلاحه وقد افلح بعضهم مثل سورولا وزولوفا فانهم تخلصوا من هذه السلطة التقليدية ومارسوا فناً خاصاً بهم وقد اجادوا كثيراً باظهار النفسية الاسبانية مع اثبات الكثير من عادات بلادهم وطبائعهم وهذا هو الفن السليم .

ثم زرت القسم الخاص بالفن الحديث المتطرف فاذا هو مجموعة ضئيلة تعد بضع لوحات . وبعد جولة في اطرافه خرجت من هذه الزيارة مدهوشاً معجباً وكم تمنيت لو ان عندنا القليل من امثال هذه

التحف النفيسة التي تهذب العواطف وتعرض امام الناظر بوقت قصير تاريخياً ومعاني موثرة وتعرف ابن البلاد الى جمال بلاده وتجيبه بها وبكل ما فيها .

اربعة ايام مرت علي في عاصمة الاسبان وانا مهمت بزيارة المعارض والاماكن الاثرية لا أكاد اخرج من معرض حتى ادخل اخر . وبعد ان نلت اجازة للتصوير من وزارة المعارف حيث لقيت كل مساعدة ولطف عدت مجتازاً الشوارع العظيمة التي مليء اكثرها بالتماثيل لاسيا في الساحات العامة، اقيمت تحليداً لابطالمهم ونوابغهم، كلها خطب صاممة وتاريخ يهيب بالامة الى السعي والعمل والسير الى الامام .

ان هذا النوع من الوعظ وتلك الطريقة من الخلود يجعلها الشرق تماماً فقد ثبت في دماغ الشرقي ان من مات فات مها كان جهاده وعظمت تضحيته ، لذلك اضعنا ثروتنا التاريخية تلك القوة المعنوية الهائلة التي تحتفظ بها الامم لانها النافذة التي تنظر منها الى النور بل الى المجد الى العلاء السنا نشعر اليوم بظماً لمعرفة تاريخ عظائنا والنابعين فينا ؟ اننا نبحث بالنظارة ويجهد لنعثر على صورهم ولا نوفق .

اذن كيف تبعث فينا الهمة وتشور فينا روح الاقتداء والتقدم؟

لنحني هذه الناحية من الخاود ففيها اليقظة من خمول اشرق الطويل .
لنمر سراعاً بهذا الموضوع ولنلق نظرة على الخارطة فان
الشوق لارض الاندلس قد زاد ولا سيما وانا اقرأ عنها كل مساء في
اسفار من رادوها من ادباء الغرب وعن كثرة اعجابهم بها . هنا
طليطلة ! هي قريبة على بعد ما دون الساعتين في السمك الحديدية
هيا اذن لزيارتها .

وما كاد عقرب الساعة يلامس التاسعة صباحاً حتى امتطيت
القطار نحو المدينة العربية ، لكن القطار لم يسر حسب الوقت المعين
حياً بعدم النظام .

وبعد مضي دقائق تحركت عربة البخار تقطع سهولا وهضابا
وارضاً غلبت عليها اليبوسة والجذب . وعلى مقربة من المدينة أخذ
الاخضرار يد بساطه والحصب تظهر بوادره .

وهنا نهر ينساب وتلمع مياهه في هذا النسيح الاخضر من
الارض فيتم المنظر ويبعث فيه الحياة ، نعم هو نهر (التاج) كما كان
يدعوه العرب لانه في حالته كالتاج لطليطلة وظل الافرنج يسمونه
« التاج » .

طباطنة النبعة

ومن ثم اخذت المدينة تبدو للعين فارتسمت حالا امام مخيلتي
حوادثها التاريخية وما مثل فيها من فظائع وما دبر من مؤامرات وما
نابها من انقسام بين الامراء امثال ابن ذي النون واتفاقهم مع
الاغراب . . . وما هناك من حديث ذي شجون . بل انني اخذت
افكر بالدماء الغزيرة التي اهرقت تحت اسوار المدينة وابراجها الماثلة
امامي بما فيها من عظمة وهي لا تزال ثابتة على مر الدهور بيناصحابها
اضحوارماً بالية . ان هذه الابراج الجبارة لم تتصدع كما انصدعت
وحدة بناتها ولم تنقرض كما انقرضوا . . .

الاحسن ان نازل من المركبة لان القطار بلغ المحطة ، وهي
بناء جميل طرازه عربي و كتمت تعرفت في المركبة الى مهندس افرنسي
يقصد البلدة وهو من عشاق الفن العربي لذلك قضينا مدة السفر نطالع
ونتحدث عن هذه الاثار وعن عظمة الفن العربي .

تر كنا المحطة قاصدين القرية اليوم والمدينة بالامس .

حقاً ان موقعها على غاية من الجمال التصويري الذي تفردت به
عن سواها من المدن فقد استقرت على مرتفع من الصخر عانقها نهر

(التاج) وضمها اليه من جميع اطرافها تاركا ثغرها الجنوبي متحولاً نحو شقيقتها الاندلسيات . ومنذ علونا على شاهق منها بدا لنا من حسن موقعها عجائب وجمال طبيعي نادر .

سهول تلتقي مع الانهائية ، الوان متنوعة ، اقسام مختلفة ، خطوط متباينة ، سماء صافية سطعت شمسها وغرد الطير باكياً طليطله ايام عزها ، وسال نهر (التاج) فكان عبرتها المرسله نحو شقيقتها الاندلسيات ومنها الى البحر المحيط حيث يتلاشى كما تلاشى مجدها من قبل .

وهنا اجتزنا الى الضفة الاخرى من النهر فوق جسر عظيم يدعى (جسر القنطرة) (Alcantarah) وهو ايضاً من بنيان العرب كالسور والابراج التي نشاهدها اامنا .

نعم من هنا بدأت تظهر علينا طلائع الفن العربي و آثاره المتفرقة واشلاؤه المتبعثرة هنا وهناك .

سرنا في ازقة طليطلة الضيقة والمبلطة على غير نظام ننظر الى بيوتها الشرقية فنظنها تكاد تهوي علينا . وقد برزت نوافذها الدمشقية المحجبة (بالشعاري) ثم استقرت عليها بعض قطع ازهار فاقعة الالوان .

ثم هناك الابواب ذات القنطرة وقد ضربت بالمسامير الضخمة ولها
مصراع عربي . انني في الشرق ، في سوريا ، بل في ازقة صيدا
او دمشق ! ...

وسارت الناس مهرولة تتزاحم لضيق الطرقات وقد عرضت
الباعة في الساحات الصغيرة بضائعها على الارض ما بين اقمشة قوية
الالوان زاهية ، وبين خروضات كاساور وأقراط وبجانبها بائع الخضار
والفاكهة ثم بائع المرطبات و (الليموناضه) (يلعلع) بصوته .

وقف رفيقي مدهوشاً عندما شاهد في تلك الساحة الصغيرة
بعض قطع اقمشة معروضة و (بقج) مقصبة موضوعة فوق سرير
حديد فظنها تابوتاً لميت ، وما لبث ان عرف الحقيقة فهز برأسه
مستنكراً ذوق ذلك البائع الفظيع .

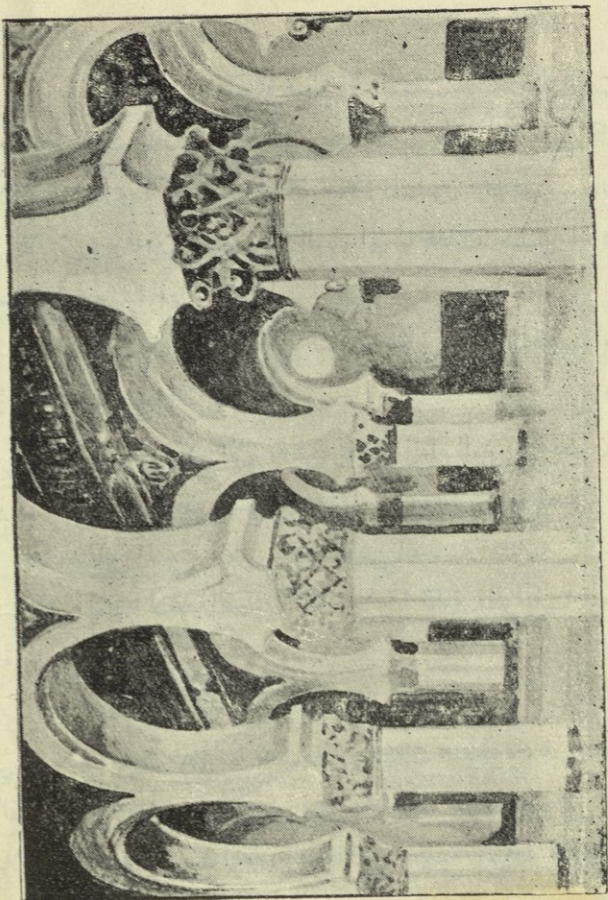
ومن الصناعات الدقيقة التي خلفها العرب هنا واشتهرت بها
هذه المدينة عمل الاسلحة والاوواني النحاسية الجميلة والحلي الدقيقة
وغيرها كلها مطعممة بالفضة او بالذهب (على الطراز الدمشقي) فصار
السياح يقصدونها لاقتناء شيء من تحفها ودقيق صناعتها العربية النادرة .
وبما ان الصديق كان من المولعين بمثل هذه الاشياء . قمنا بجولة في
الاسواق الخاصة للتفرج على ما فيها من كل مريح وثمين .

ومن غرب ما سمعته هناك ان العادات الاسلامية اثرت في نفوس اهل تلك البلاد لدرجة انه توجد الآن طائفة منهم تمارس صلاتها في احدى الكنائس بشكل صلاة المسلمين تماماً فهم يسجدون على الارض ويرفعون ايديهم نحو السماء الى ما هنالك من العادات الاسلامية ؛ ويدعونها (موزاراب) .

قصت زيارتها ولكن لسوء الحظ كانت الكنيسة مقفلة ولا تقام هذه الصلاة الا باكراً .

(ومن الاماكن الاثرية فيها بعض اقسام السور والحصون التي لا يزال محفوظاً منها بعض الشيء ، ومنها : باب الشمس . قصده فاذا هو احد مداخل المدينة ، باب كبير حسن الهندسة متناسق الاجزاء يظنه من يراه باباً لاحد القصور الفخمة لا باباً لقلعة نظراً لما فيه من دقة الصنعة)

ثم زرت الكنيسة الكبرى التي كانت مسجداً شهيراً فاذا هي اليوم من حيث الهندسة مجموعة متناقضات هندسية ، فيها العربي والقوطي والروماني واليوناني . فهي ولا شك مجلتها هذه تمثل تاريخ البلاد الاسبانية . . . اما هذه البيعة فهي عظيمة شاهقة البناء ذات افناء فسيحة غنية بالنقوش .



كنيسة سانتا مريا ان يانكا في طليطله

﴿ ورغم ضيق الوقت لم انس زيارة كنيسة الستة ماريا ان بيانكا . زرتها فاذا انا بين آثار عربية لكن لها نسقاَ خاصاً بسيطاً فحماً فيه قليل من نقوش مشجرة ، وهي مقسومة الى اربعة اروقة بقناطر مستديرة القوس وقد طليت اجمعها بالكلس فظهرت باون ابيض ناصع . وهناك على احدى جدرانها لوح كتب عليه : « ان هذا البناء كان كنيساً لليهود اخذ على اثر خروج العرب من الاندلس وحول الى كنيسة وهو الآن متحف وطني » ﴾

ولم احب ان اغادر طليطله قبل ان ازور مسكن الفنان الاسباني المشهور كريكو فهرعت لزيارة مسكنه ، وهناك في وسط حديقة لطيفة تبعثت في اطرافها بعض آثار ، بني بيت قديم يشبه بيوتنا الشرقية كثيراً ، دخلته وشاهدت ما حواه من الصور الزيتية وشاهدت غرفة المصور الخاصة وسريره والمطبخ وجميع حوائجه . وبيته هذا ككل بيوت الفنانين اشبه بصومعة راهب لاهم له من الحياة الا ان يفكر في اسرار الطبيعة والحياة العالية والجمال الراقى . وللاجل متابعة السفر الى بلاد الاندلس كنا مضطرين ان نعود لمدريد ، لانه لا يوجد طريق الا منها .

وعند الساعة السابعة مساء ، في تلك البرهة ، كانت الشمس

تودع النهار بنظرة دامية ، ركبت القطار عائداً نحو مدريد وانا اردد
في جمال طليطله :

زادت طليطله على ما حدثوا بلد عليه نضرة وزعيم
الله زينه فوشح خصره نهر المجرة والقصون نجوم
وحينا اسدل الليل ستاره ركبنا القطار واخذنا تتجاذب
اطراف الحديث ، حتى بلغنا مدريد او (مجريط كما كانوا يسمونها)
فسرنا في شوارعها التي كانت تشع بالانوار الكهربائية وقد كثرت
فيها السيارات والقطارات وعلت الضوضاء . ودعت رفيقي وعدت الى
فندقتي القريب من المحطة .

وكانت دنت ساعة الطعام فجلسنا الى المائدة ، وبمناسبة
الطعام اقول انه استرعى انتباهي لاول مرة عندما جلست لتناوله انه
كان وفراً جداً بعكسه في المطاعم الايطالية ولا سيما الافرنسية حيث
الانسان رغم ما يدفعه من فاحش القيمة ، فانه لا يرى في الصحون
الكبيرة الفارغة الا زخرفة وزينة وحركة بلا بركة ، ولا شك فان
هؤلاء امتازوا عن غيرهم بفن الزخرفة والاعلان . . . لذلك عندما
اصبحت في اسبانيا لم ألبث ان فوجئت بذلك الخصب والكرم ، وقد
ادركت بعدئذ انني في بلاد كانت فيما مضى عربية ولا تزال ترف على

معظم عوائدها روح شرقية .

وكانت ليلة جميلة ساكنة فخرجت لحديقة (سيللا) القريبة
وقد غرست بطراز حديث ، في بعض نواحيها نوافر تقذف المياه فتقتل
ما في الجو من حرارة ؛ والناس في الحديقة ما بين جالس على المقعد
يقرأ صحيفته وآخر مع زوجته واولاده وهناك اطفال يلعبون فرحين
ثم شاب مع فتاته يسرون بتمهل والابتسامة على الشغور والفرح في
القلوب والآمال في النفوس .

وها انا امام سينما في الهواء الطلق يعرض مشهداً وطنياً والجميع
يهتفون للجيش والعلم والتضحية لاجلها ، فتذكرت عندئذ ما تعرضه
عندنا شركات السينما من المشاهد المخجلة . . .



وما كادت تبرزغ شمس ٢٣ تموز حتى قصدت محطة (مديوديا) وهي باب بلاد الاندلس ، ولذلك فهي محطة حقيرة لا تليق بعاصمة كمدريد ومن هنا بدأنا نرى الابهمال والتأخير مع أن ارض الاندلس اغنى اراضي اسبانيا وهي كثرتها الثمين .

وقد انحسر الناس في باحة المحطة واكثرهم من العمال والمزارعين وبعض السياح وقد ازدحموا على شبك التذاكر بدون نظام الا نظام الرفس واللطم . . .

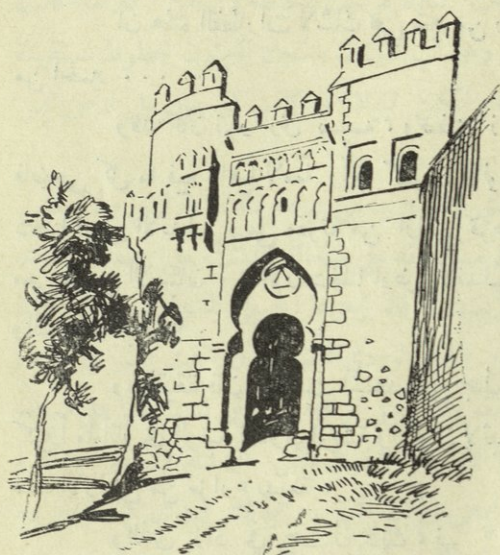
وقفت هتية انامل هذا المشهد ، مشهد القرويين الفقراء

الطيبين .

اخذت مكاني في المركبة وكان فيها بعض المسافرين وطبعاً حسب عادة اهل تلك البلاد في كثرة الابهمال فلم يتحرك القطار من المحطة الا بعد مضي مدة عن ميعاده .

واخيراً سار القطار ببطء بين تلويح المناديل وتحريك القبعات وبين دموع وابتسامات وانفجار قبلات وغمزات المودعين والمودعات . . أخذ القطار يبتعد عن العاصمة وبدأت تتغير علينا المناظر وقد ظهرت مدريد عن بعد في قبابها وبنائاتها الشاححة ، ثم اخذت تتلاشى بين الضباب فبدت كأنها تلك القصور الخيالية التي يضرب فيها المثل ، كقصور اسبانيا .

اتجهت نحو النافذة متنشقا نسيم قرطبة وبلاد الاندلس مدفون
المدينة ، اجل اني ازور ارض المجد المندثر فلعل في زيارة الاموات



باب الشمس في طليطلة

عبرة للاحياء ،
بل ربما كان
سكون الاموات
ادعى للعبرة
والتفكير من كلام
الاحياء الاموات
ورب نظرة
حكيمة خير من
حديث طنان .

الى بلاد
الاندلس الى الحج
الى بلاد المجد المفقود .

وعلينا ان نعلم انه لا شيء ادعى للصبر من قطارات السكة

الحديدية في تلك البلاد فكأنه كتب عليها العجلة من الشيطان .
ولكي اعزني نفسي كنت اقول :
ان هذه القطارات لاشك هي خير من ركب البغال واسرع
من الحمير ...

وقد كان نهار رق نسيمه ، وصفت زرقته ، وشع نوره ،
فاضحى كل ما فيه زاهياً لامعاً وقد كثرت الالوان والانوار ، ومنذ
دخلنا ارض الاندلس وعلى مقربة من اراضي قرطبة قال لي من كان
معى من الاسبان : « الان دخلنا ارض الاندلس ، أرض الخصب ،
والثروة والجمال » .

وبالحقيقة فان ما كنت اشاهده من جمال ونضارة والوان حية
كثيراً ما اثار بي الرغبة لتناول الريشة والالوان لاثبت بها بعض ما حوته
هذه الاراضي من مزارع بديعة .

والذي زاد في جمال ذلك ، نهر « الوادي الكبير »
(Guadalquivir) وهو يجق نهر من الذهب كبير فقد انساب في
تلك السهول المترامية يمدق عليها من نعمه ففاضت بالنعيم واحيت
الارض بعد موتها ، فانبتت زهراً وفاكهة وخضرة ونعياً .
كنت انظر الى يميني فارى حقول الكرم امتدت الى اللانهاية

ثم التفت عن يساري فاشاهد بساتين الليمون واللوز واحياناً اشجار
الصنوبر وطوراً مسافات كبيرة غرست بالحنطة ولكن اكثر ما كانت
تقع عيني عليه سهول وهضاب طرزت باشجار الزيتون بخطوط مستقيمة
ومنها متعاكسة ، ولكن قليلا ما كانت تمر عيني على ارض ليس
للخضرة فيها نصيب .

ونهر الوادي الكبير يسقي مياحه تلك الاراضي ولا ينضب
وكان الطبيعة احبت مكافأته على سخائه فانبتت على ضفافه اشجار
الحور والصفصاف وزيتها الدفلة بزهرها الجميل الذي رسم على تلك
السهول قلادة من زهره الوردي ، توجت ورافقت النهر في مسيره
وعطفاته فكانها تعانقه ولا تطيق فراقه حتى تركت ظلها على سطح
مياحه وانضمت معها الاشجار الاخرى فاتى كل ذلك منظرأً بديعاً لم
تر عيني اروع منه وابهى وكان النهر سر بذلك فجرى يتمم نجريره
انشودة مديح وثناء شاركه فيها طيرها والنسيم .

يا أهل اندلس لله دركم ماء وظل وانهار واشجار
لا تحتمسوا بعد ذا أن تدخاوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار
ولا يجب ان نظن ان هذا المشهد على مسافة قصيرة بل هو
منظر اغلب ارض الاندلس ، هو مسافة ايام متوالية . ولا اكون مبالغاً

اذا قلت ان ارض الاندلس مجنبتها وغزارة مياهها وما فيها من خيرات
هي الفردوس الارضي الذي يدر لبناً وعسلاً بل كنوزاً تخرج الذهب
والفضة وكل انواع الخير!

وهل من عجب بعد ذلك ان نرى في ذلك الفردوس قصور
اسبيلية وغرناطة وقرطبة تلك القصور الخيالية؟

ان تلك الجنان حرية بتلك الصروح الفخمة ، وان مثل هذا
الحصب النادر بيني قصوراً جنونية من المرمر رصعت جدرانها بالفضة
والذهب وسقوفها بالعاج والابنوس .

انني اتحدث عن جنان وقصور ثم كنوز ، اذن فما هذا الفقر

الهائل الذي اجتاح البلاد الاسبانية اليوم؟

ولا يجب ان تغرنا بعض بنايات مدريد

العظيمة فهي ليست من نتاج ارض اسبانيا بل جالها
من ذهب اميركا . انني لم استطع حلاً لهذا اللغز
العجيب الا بعد الثورة الاخيرة . . .

لقد ادركت كيف ان العرب يحسن ادارتهم

استطاعوا جعل هذه البلاد جنة وشيدوا فيها تلك

المعجزات الفنية رغم بدخهم الكندي لم افهم سبب هذا



قروي

الفقر العظيم والبؤس الهائل وان ارى بلاد الاندلس خاصة ملائى
بالمتسولين والبؤساء .

لقد اتفق اعظم المؤرخين ومعهم اهل الاندلس على القول :
انه منذ رحل العرب عن بلادهم رحلت معهم النعم والازدهار وحل
مكانهما البؤس والدمار .

كانت الاندلس مركز الحضارة وعاصمة المعارف والصناعات
ومبعث الحركة الفكرية والتجارية في العالم . اما الآن فالجميع
يعرف عن حالتها الشيء الكثير !! وفي قول الكاتب الافرنسي
كلود فارير كفاية :

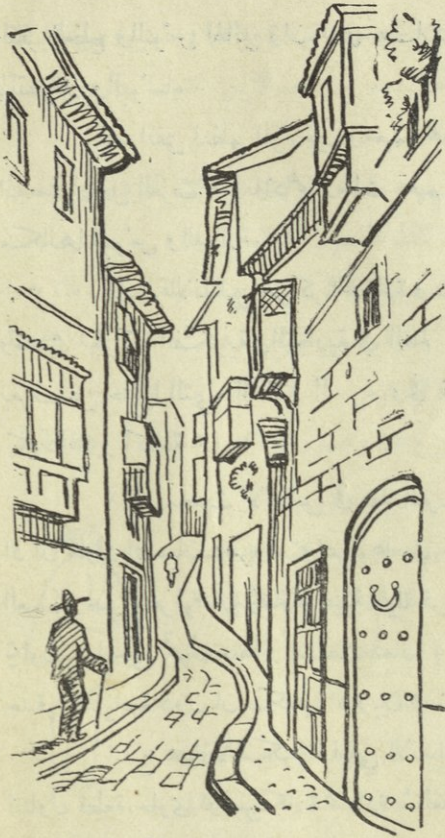
« لقد سعدت الاندلس في عهد العرب ولم تسعد الا في عهدهم
اذ ان ماوك الاسبان دمروها واغرقوها في نجيح من الدم ، اجل ان
العرب وحدهم عرفوا ان يجعلوها غنية طيلة قرون عديدة ولم يكادوا
يجاون عنها حتى تحول حالها واصبحت دماراً ، ذلك ان ماوك الاسبان
حذقوا السياسة دون ان يكونوا اداريين » .

لندع هذا ولاشكرن رفيقي الاندلسي في القطار وهو يدعوني
لتناول قطعة حاوى او سيكاراة ، عادة شائعة وطبيعة في اهل البلاد
هي حب الضيافة دون سابق معرفة .

قرطبة دار العلم

وكانت الشمس
قد آذنت بالمغيب ،
فاول ما أطل علينا من
قرطبة مآذن مسجدها
الشهير وقبابه وقد
خضب الشفق الملتهب
اعلاها بالوانه النارية
تاركاً بعضها على
سطوح المدينة وقد
غمر باقيها بحر من
الظل البنفسجي تلاشى
مع الظلام .

نحن في عاصمة
عبد الرحمن الداخل ،
في مركز خلافة



طريق في قرطبة

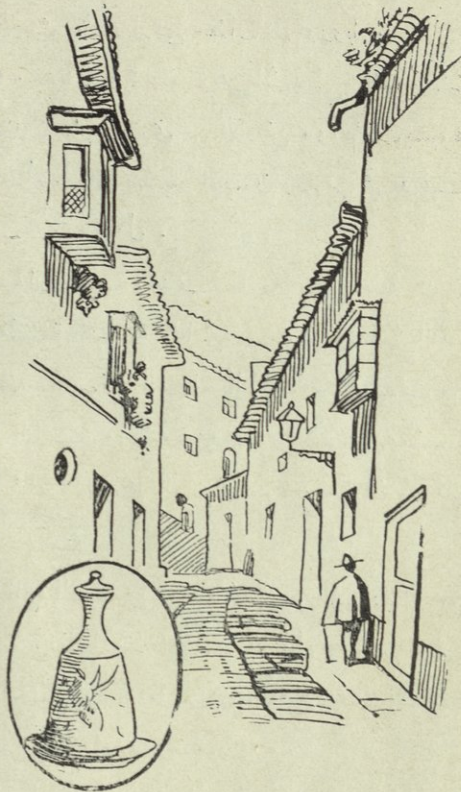
الامويين في الاندلس حيث كانت ارقى حضارة في اوربا .
نزلناها فماذا وجدنا؟ بلدة صغيرة هي اشبه شيء بالقرية ذات
موقع طبيعي فائق امتدت على مستوى من الارض ، وأحاطت بسورها
من الغرب والجنوب جبال مكلمة بأشجار الزيتون وقدمر في طرفها
نهر الوادي الكبير بسكون وجلال .

قرطبة اليوم بلدة بسيطة وقديمة ما خلا بعض ابنية حديثة
لم تقدر ان تزيل عنها المسحة الشرقية الناطقة في جوها وسماؤها النقية
وشمسها الالهبة ، وهندسة بيوتها البيضاء الناصعة حيث تددت من
نوافذها الشرقية ازهار الياسمين والفتنة وغيرها ، واستقر على بعضها
(نغاره) فخار لتبريد الماء ويدعوها الاسبان جرة . حتى ان شكلها
ونقوشها تشبه النعارة عندنا .

وهناك طرقاتها الضيقة والمتعرجة خلت من المارة الا من
شخص او اثنين يسيران في ظلها متناقلين لقلّة الاعمال ورخص الوقت
وجو مليء بالكسل والخمول . . . اما المناهي فكثيرة هناك ككثرة
الزبائن فيها ، جلسوا يشربون ويلعبون ويتامون . . .

رأيت قرطبة اليوم بهذه الحالة المفجعة وعدد سكانها لا يبلغ
الاربعين الفاً ، ثم تأملتها يوم كانت عاصمة الحضارة ومركز العلوم

والآداب والصناعات
والفنون ، أول بلد
زراعية قدهشت
وسالت عبراتي . . .
اذ وجدت ان معاهد
الآداب والطب
والكيمياء والمهندسة
وغيرها وقد غصت
دورها بالوف الطلاب
اي نعم اصبحت اليوم
ويا لاسف مقاهي تبيع
باللاعبين والشاربين
وكثير من التافهين
ايضاً . . .
اجل تأملتها يوم
كانت فيها اعظم
الجامعات ومستشفيات



طريق في قرطبة

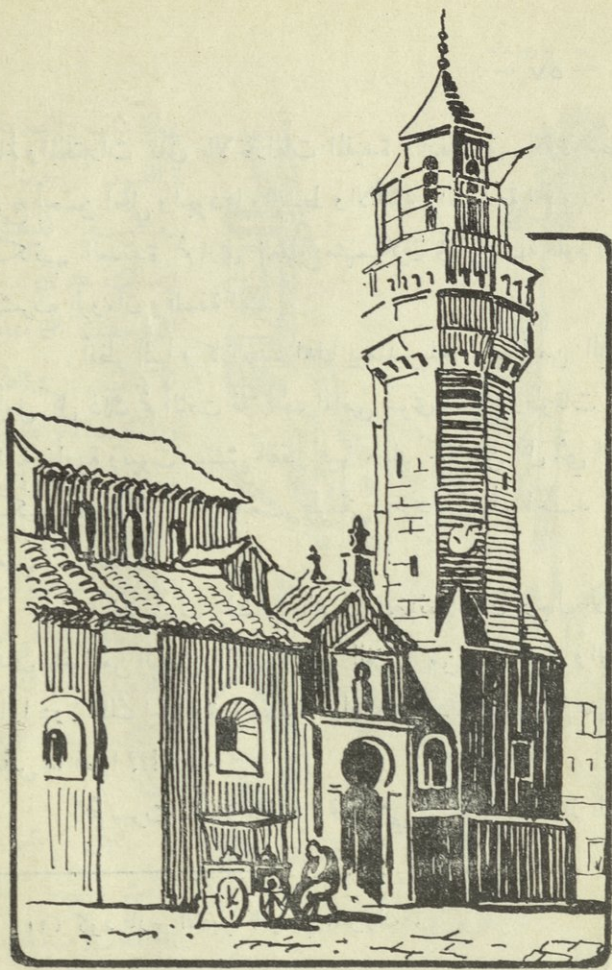
العالم والمختبرات تأتي بالاختراعات المفيدة ، انظر الى كثرة مصانعها
تخرج أحسن الحلي واجودها والبسط والاقمشة والاسلحة الخ . . . لتمثل
المكاتب العديدة ثم ارى العلماء منهمكين في ترجمة علوم اليونان
وتشريع الرومان وفلسفة الهند .

انظر اليها وكان عدد اهلها يومئذ يبلغ مليوناً من البشر ،
اتأمل كل ذلك ثم أتفت فلا أجد امامي سوى مقاهي وطرق حقيمة
خالية خاوية وبيوت عشش الفقر فيها ، بلد خلا من كل شي الا من
الكسل والجهالة ، ثم تابعت طريقي مردهم قول احد كتبة
العرب^(١) المنصفين :

« اننا نأسف لحضارة العرب الضائعة وان رجال الاسبان
الذين بلغوا من البطش اكثر مما بلغ العرب من الحكمة والادارة
حاولوا دون تلك الحضارة الحقيقية واروبا ودفعوها بعيداً عنها ،
فبئس ما فعلوا !!؟؟ . . . »

ثم سرت متأملاً مآذنها ، فاذا هي قريبة من الطراز الشامي

(١) كلود فارير الاديب الفرنسي المعروف .



مأذنة كنيسة سان نيقولا

لان عرب سوريا حينما نزلوا بلاد الاندلس اقامت كل فئة منهم في بلدة ما عدا قرطبة فكانت مركزاً للزعماء ، فاهل دمشق نزلوا « غرناطة » واطلقوا عليها اسم دمشق ، واهل حمص هبطوا « اشيلية » وسموها حمص ، واهل فلسطين حاوا في « شريش » ودعوها باسم فلسطين ، واهل قنسرين نزلوا « جيان » واطلقوا عليها اسم قنسرين الخ . . .

وهذه ، أليست مأذنة شامية مسدسة الشكل ؟ لا هي لكنيسة (سان نقولا) وتلك ثمانية مربعة الشكل . انها لا تزال على حالتها الاولى . انني انظر الى مأذن دمشق . . .

﴿ وهنا دار شامية لندخلها ، جدرانها بيضاء جد ناصعة تدلت من فوقها الازهار وكذلك فوق الباب العربي الصغير . ثم هناك الدار مكشوفة رصفت ارضها بالبلاط وتمنطقت اسفل جدرانها بالقيشاني ذي الالوان المذاعة ومثلها غرف البيت ، وقد غرس في وسط الدار شجر البرتقال وسواه ، وصفت حولها (زراربع) وقساطل الزنبق والياسمين ، وفي الوسط قامت فسقية لطيفة تبعث مياهها بسكون فتحفف ما في الجو من حرارة وجفاف ﴾

ولكن لننظر قليلا الى تلك النساء الجميلات ذوات البشرة السمراء وقد جلسن امام باب الدار ينظرن الى المارة يعيونهن الكحلاء

وقد هذين شعرهن الفاحم كعيونهن الناعسة وزينه بياقة من الياسين
ملاً عميره جو البلد وعلى رأسهن مشط كبير ثم ارسلن فوقه وشاحاً
ابيض مزركشاً تدلى على الاكتاف . اما على مرتفع الصدر وعلى
مقربة من النهد فقد برزت فلة فياحة، وفي اليد مروحة عظيمة تطرد بها
الحر بكسل ودلال .



اندلسيات في فناء بيت عربي

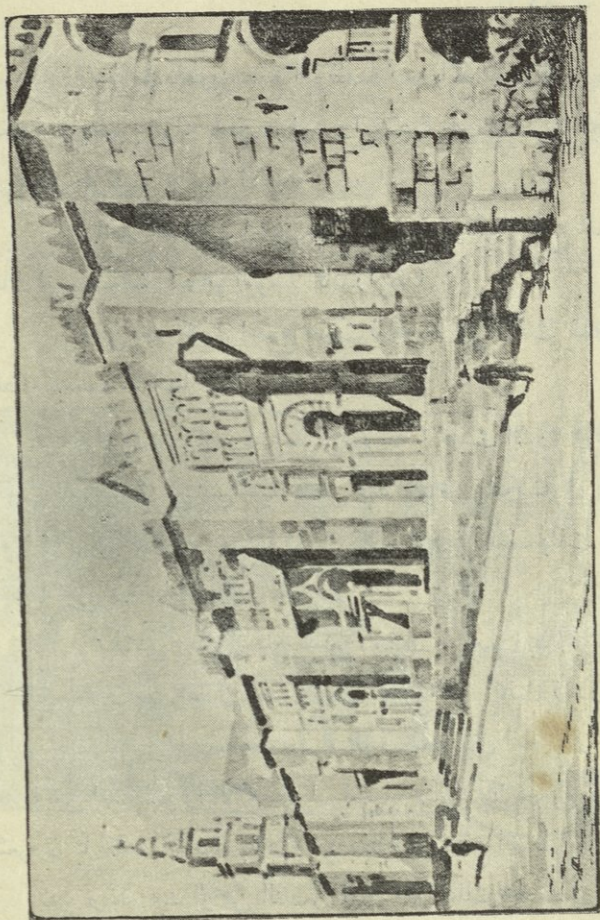
وسار في الطريق بائع البوظه وتبعه بائع الليموناضه يضرب
بصحونه وينغم بصوته بلحن عربي ، والخلاصة نحن في طريق البزوريه
في احدى طرقات العاصمة الاموية . . .

واخيراً اسرعت الخطى ميمماً مسجد قرطبة الجامع المعروف
هناك (موسكيتا) وهو اليوم (كاتدرائية) .

وعن بعد كنت اسمع صوت نواقيسه التي كانت تدوي في
الفضاء فيسمع لها انيناً .

ولا بد من لمحة سريعة عن تاريخه : قامت الثورة في الشرق
وتغلب العباسيون على بني امية فاعلن عيد الرحمن ملكيته في قرطبة
عام ٧٥٦ م ، كانت بدء مدينة دامت ثلاثة قرون ونيف بلغت فيها
اسبانيا أعلى ذرى الحضارة والازدهار .

تم لموسى وطارق ففتح تلك الامصار باجمعها بمدة قليلة جداً
لا تبلغ العامين بعد معارك معدودة لان اكثر المدن كانت تبادر لفتح
ابوابها امام العرب الذين يعاملونهم برحمة وعدل فوق الحد . وكان في
مقدمة من استقبلهم والاهم مطران اشبيليا وكثيرون غيره الذين كانوا
يشعرون بما كانت تتحمله بلادهم من مظالم وفضائع القوط الحاكمين .
وشاء عبد الرحمن الناصر لدين الله الملك الجديد في قرطبة



جزء من مسجد قرطبة الخارجي

ان يستميل العرب اليه وان يحب اليهم السكن في تلك البلاد الجديدة
وليصرفهم عن الافتكار بالعودة الى بلادهم ، بنى لهم في القرن الثامن
هذا المسجد (كعبة الغرب) بل المعجزة المعارية ، ويمت للقرن التاسع
بالاضافات وذلك في عهد الحكم الاول والثاني والثالث ، اي استمر
العمل فيه ما يقارب مائة سنة . . . ومن دواعي الفخر ان نعلم ان
واضع تصميمه وجمال هندسته هو عبد الرحمن نفسه . ذاك الملك الشاعر
الرييق ، العالم الحر ، القائد العظيم ، السياسي الحاذق الذي ابرم اتفاقات
هامية مع اعظم دول اوروبا فجعل سفراءهم تتوافد الى قرطبة تحمل
اليه اثن الهدايا . واذا شاهد الانسان عن كتب الهندسة العظيمة التي
انشأ عليها المسجد يمكنه ان يدرك اي نابغة عظيم كان عبد الرحمن
وعندئذ يفهم حقيقة الملوك .

ولكن لم يكن عبد الرحمن وحده ولوعاً بالفن الهندسي ، لان
التاريخ يدلنا على ان الثقافة الفنية كانت شاملة ايضاً لطبقة الاطباء
والعلماء والفلكيين وغيرهم ، وكان من كبار الفلكيين وعلماء الهيئة
مثلا ابو جعفر السلمي ، ثم النباقي المشهور ابو عباس بن مفرج ، وابن
جابر الرياضي المشهور والوزير ابن الحاج والطبيب ابن خاتمة وهو من
عرف الجراثيم واثبت العدوى . قيل انه كان حسنة من حسنة

الاندلس والخلاصة كان اكثر هؤلاء الناس ممن لهم معرفة تامة عدا اختصاصهم ، بالهندسة والموسيقى والشعر وفنون الادب . . . اما عند اهل اليوم فاصبحت هذه الامور تعد ضياع وقت!

لذلك كان يلقب عبد الرحمن الثالث « ميسين ^(١) » العلوم والآداب والفنون في ذلك العهد الزاهر كاهله . . .

اما المسجد فقد بني من تراب قرقشنة (قارقسون) التي ملكوها في بلاد الغالوا؟! . . . نعم !!

➤ المهم ان جامع قرطبة يعد اعظم مسجد في العالم ، وهو آية من آيات الفن المعاري ، يقصد زيارته الوف من السياح من اقاصي البلاد للتملي برائع فنه . قد بنى عبد الرحمن مسجده هذا كما ألمعت آنفاً لغاية سياسية عميقة كي يصرف المسلمين عن التفكير في العودة الى بلادهم لذلك بذل في بنائه من الجهود ما لا يوصف ، وصرف من الاموال المبالغ الطائلة وزينه بالنقوش من قيشاني وفسيفساء بطريقة تأخذ

(١) ميسين : هو نديم اغسطس قيصر الروماني استعمل نفوذ مولاه لترقية العلوم والمعارف والفنون واغدق نعمه على العلماء واصحاب المراتب فاصبحت كلمة « ميسين » تدل انه حامي ونصير الاداب والفنون .

بالالباب، حتى انه رصع محرابه بالاحجار الكريمة وحلاه بالذهب والفضة
فأتى عجيبة فنية باهرة وبهجة للناظرين .

ان الباحث المنقب يلمس في هندسة هذا الجامع ومن خلال
خطوطه الجامدة بظواهرها الفنية ، روح الجد والرصانة والايان
المتين ، ويدلنا كل قسم فيه عن جد وبأس وقوة عزم بالغة ،
يذكرنا شيئاً منها بالروح الروماني الحربي بما في اعمدها من فخامة
وخصوصاً تاج الاعمدة الرهيبة ، ولكن الرومانية قاسية جافة ، بينما
العربية لطيفة لما تحمل في طياتها من رقة في النقوش والفسيفساء الزاهية
التي تخفف كثيراً من قسوتها وان لمن عظمة الفن ومعجزاته الجمع بين
القوة والرقة ، وهذا ما نراه ماثلاً في جامع قرطبة الشير الذي يمثل فناً
ونسقاً خاصاً من فنون العرب الكثيرة في الاندلس مما يدل عن مهابة
ووقار ، صفات العربي يومذاك ، فأتى مثالا ناطقاً عن نفسياتهم
واخلاقهم الرصينة .

لقد قرأت عنه الشيء الكثير وكنت اقول في نفسي : هذا
من مبالغات الكتاب وخيالات الشعراء . ولكن وقوفي امام مفاتنه

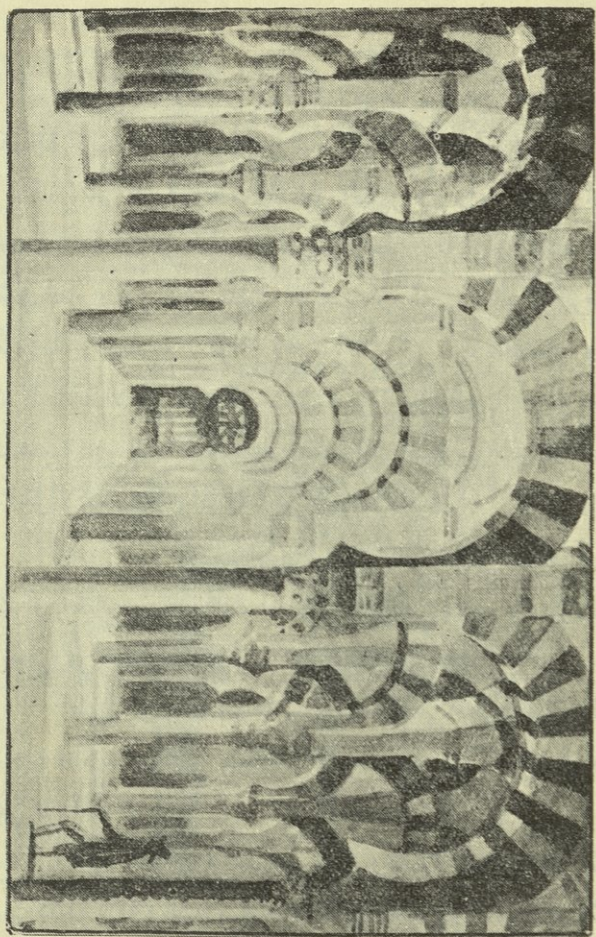
أكد لي ان كل ما قرأته عنه انما هو شيء ضئيل جداً ، وقد عذرت
الكتابة وخيال الشعراء اذا هم لم يفلحوا بان يحيطوا بوصفه لانه
من المعجزات .

ولقد صدق الخليفة عبد الرحمن حيث انشد :

همم الملوك اذا ارادوا ذكرهم من بعدهم فبالسن العمران
او ما ترى المرمين قد بقيا وكم ملك يحاه حوادث الازمان
ان البناء اذا تقادم عهده أضحي يدل على عظيم الشأن
دخلت الجامع فاذا انا في غابة من المرمر ضمت ما يربو على
الف عمود من مختلف الالوان والاجناس ، علتها حنايا مزدوجة ونهضت
فوقها قباب فيحاء واسعة الارجاء .

لنقف وننظر الى هندسة تلك الاعمدة العجيبة التي تبدو لنا
كيفما نظرنا اليها ومن اي ناحية رمقناها خطأ مستقيماً ينتهي بجراب
جميل او باب منقوش

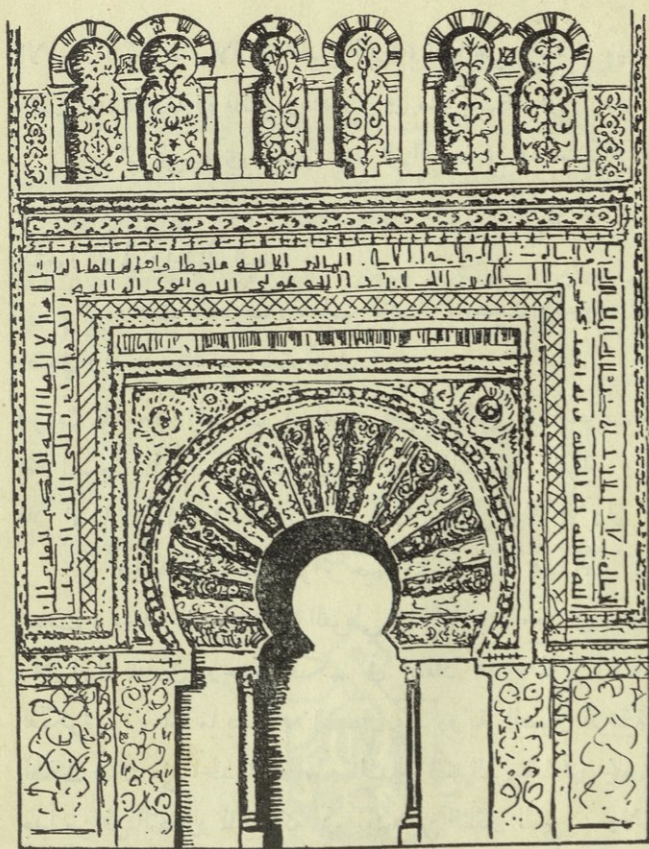
جزء من داخل جامع قرطبة الشهير



بـ بل لنقف ونتأمل قليلا في معجزات الفن العربي : قناطر
مشبكة كأنها ادواح حملت من النقوش الدقيقة المشجرة ما هو أشهى
من الاثمار ، او كأنها غابة من النخيل الظليل في واحدة غناء ، وارقة
الاعضان ، وهناك على الجدران ، رسم وحفر ونقش وترصيع ووشم
غاية في الفن والابداع ، تحلت بالذهب ووشيت بالالوان الزمردية
والقرمزية والسماوية . الوان باهرة كالشرق بانواره المشعة ، وزرقة
سمائه الصافية الاديم ، انعكست في نفس العربي فاجبها وراح يعرضها
آيات عجيبة على جدران معبده او قصره فاتى بشعر من الالوان والحطوط
والتناسق لا يقل رقة وانسجاماً عن شعره في البيان .

وبين هذه الروائع انزلت آيات الكتاب الحكيم فاذا بها
الذكاء ودقة الزوق على تلك الجدران فاذا هي سحر يأخذ بالالباب
وموسيقى من الحطوط والالوان كأنها تناسق وانسجام .
اضف الى جمال مبنائها سمو معناها فهي تأمر بالعدل والوفاء
والشجاعة والانفة وتقضي باحترام الضعيف ، وهي تأمر بالمعروف
وتنهى عن المنكر .

وهذا المحراب ، ليس هو تحفة وفتنة ؟ رسوم ازهار لطيفة
واعضان دقيقة ناعمة وغاذج مبتكرة غشيت بالذهب واكتست حواشيا



المحراب - جامع قرطبة

بالاحجار الكريمة والالوان الحية النيرة ، فاذا هي رائعة ، مدهشة ،
وقفت عندها دقة روفائيل وفنه ، واين منها ميكالينج ورمبرانت !!
انه فن عاوي قصرت عنه كل الفنون ، انه مبتكر ، نادر
له الشعر والعظمة والجمال ، هو من بنات افكار العربي « الحر » ذي
الشعور العالي والخيال البعيد .

وقفت بالمحراب وتأملت المنبر ، ثم مضيت بالمسجد تحافت
بصوتي وانشد شيئاً من آيات شوقي :

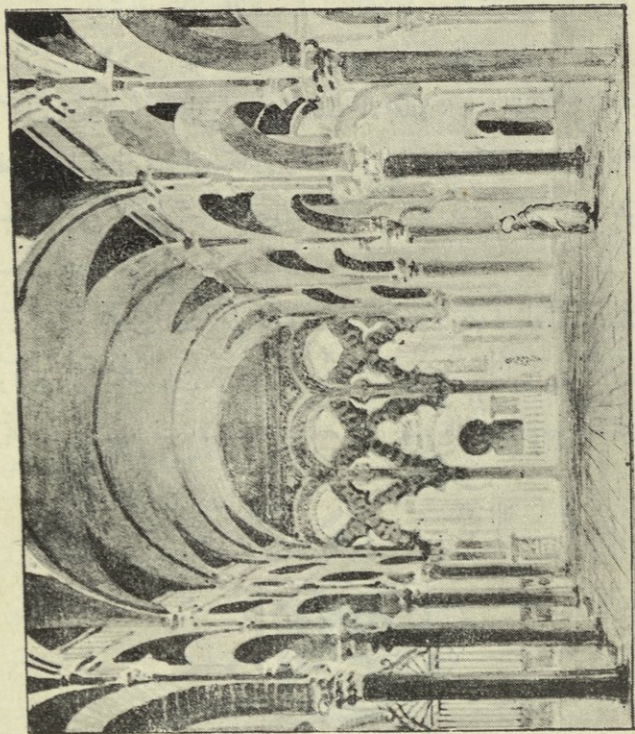
مررت بالمسجد المحزون اسأله هل في المصلى او المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت على المنابر احرار وعيدان
فلا الاذان اذان في منارته اذا تعالي ولا الاذان اذان
ولشد ما يدهش الزائر حينما يري في وسط هذا الفن اشراقي
البيحت ، معبداً على الطراز « القوطي » يتنافر جداً مع كل ما حوله .
واني اترك للقاري . وحده الحكم في انتقاد هذا المزج وسخافة
الفكرة . . . اما ما يشعر به الانسان عند رؤية الصور الزيتية التي
الصقت هناك على الجدران وامام تلك الروائع العربية ، فما يجعله ينفر
جداً من فن التصوير لما يتركه في نفسه من التأثير السي . ولا ريب
بان الفن الحقيقي يسخر من الفن . . . ولا اكنم عظيم حيرتي عندما

حدثتني نفسي بتصوير شيء هناك . . .

لنترك الآن الفسيفساء والقيشاني والرخارف وما هناك من نقوش دقيقة ومن عجائب ومالا ادري . . . ولنلق نظرة عامة لنرى كيف أن النور والظل لعبا بين تلك الاعمدة ، بل الغابة التي لا نهاية لها ، وما هناك من انعكاس وظلال وانوار متعاكسة وأبعاد وعماق جعلت من المنظر جنة خيالية ينكر انها صنع بشر ، ان هو الا سحر مبین .

كنت انظر الى هذا المكان فادهش ثم اسأل نفسي بعد ان رأيت أن اكثره بات متهدماً خراباً ، كيف كان منظره يوم كان مصاناً بجرمته ، تضاء فيه الالاف من المصابيح يشع بالانوار ويعج بالمصلين !





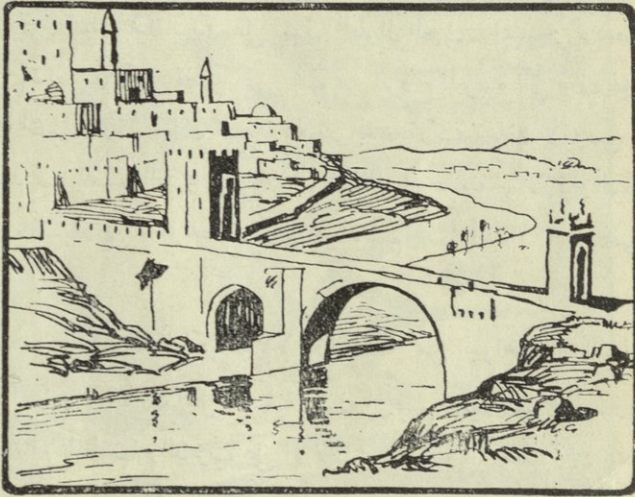
جزء داخلي من جامع قرطبة مع المحراب

اشبيلية مدينة الطرب

وعند المساء حملني القطار الى اشبيلية فوصلناها ليلاً ، وفي الغداة باكراً جداً رحلت اجول في شوارعها فاذا هي مدينة عظيمة بل ارتقى مدن الاندلس اليوم واكثرها ازدهاراً وسعة ، فيها بنايات فخمة وحدائق متسعة جميلة يبدو على بيوتها الطراز العربي - المسيحي وبعضه عربي خالص ولكن تظهر على مجموعها الروح العربية التي ترف على جوها الشرقي وقد ملئت المدينة بالآثار العربية كبقية بلاد الاندلس . ويوجد فيها القسم القديم فهو لا يزال محافظاً على صبغته في الازقة والبناء واسماء الشوارع . اما هيئات اهلها وعاداتهم سيما النساء منهم فهي عربية خالصة .

والاشبيلية اكثر دلالة واناقة من سواها من النساء الاندلسيات ، كذلك اسل اشبيلية امتازوا بحبهم حياة اللهو والسرور ولهم ولع بالطرب والضرب على الآلات الموسيقية . ويظهر ان هذا الميل متأصل فيهم منذ القدم ، وكان اذا مات موسيقي بقرطبة في زمن العرب واريد بيع آتاه حملت الى اشبيلية ، واذا مات عالم باشبيلية

واريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، لذلك قيل ان قرطبة
اكثر بلاد الله كتباً واهلها اكثر الناس شغفاً بالعلم واليك ما قيل فيها :
باربع فاقت الامصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان اثنتان والزهراء والعلم اعظم شي . وهو رابعها



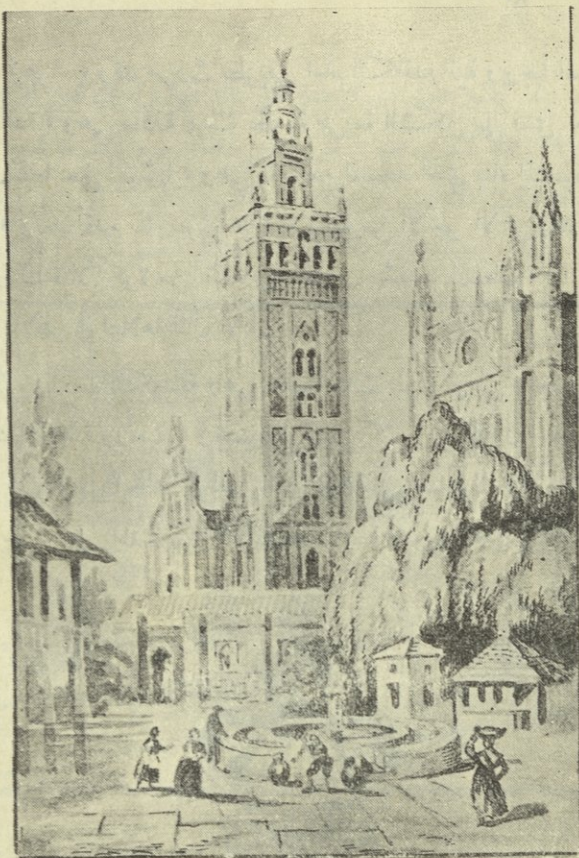
جسر (القنطرة)

الخلاصة اننا نبحث عن الآثار الفنية ، اذن هيا الى زيارة

قصر الزهراء ، وقد مررت بطريقي امام الكاتدرائية وبرجها المسمى (جرالدا) وهي مأذنة عربية عظيمة مربعة الشكل على نسق مآذن المغرب تماماً حتى نقوشها ، وهي باقية من المسجد الذي بناه المنصور عام ١١٩٥ وتعد أقدم بناء عربي هناك ، مبنية من الآجر الاحمر وقد كان في ذروتها قبلاً ككرة من النحاس المذهب شديد اللمعان ، اما اليوم فيرى الناظر في اعلاها تمثال الايمان .

زرت الكنيسة وهي عظيمة ذات طراز قوطي وبعضه عربي لها حنايا شاهقة ورجبة ، ومجموعها يحمل كثيراً من الوقار . قد دفن هناك ابن الرجل الخالد كولبس الذي مات ابوه مسجوناً والاعلال في عنقه جزاء على عمله العظيم؟! . وهناك ايضاً ضريح للقديس فردينان .





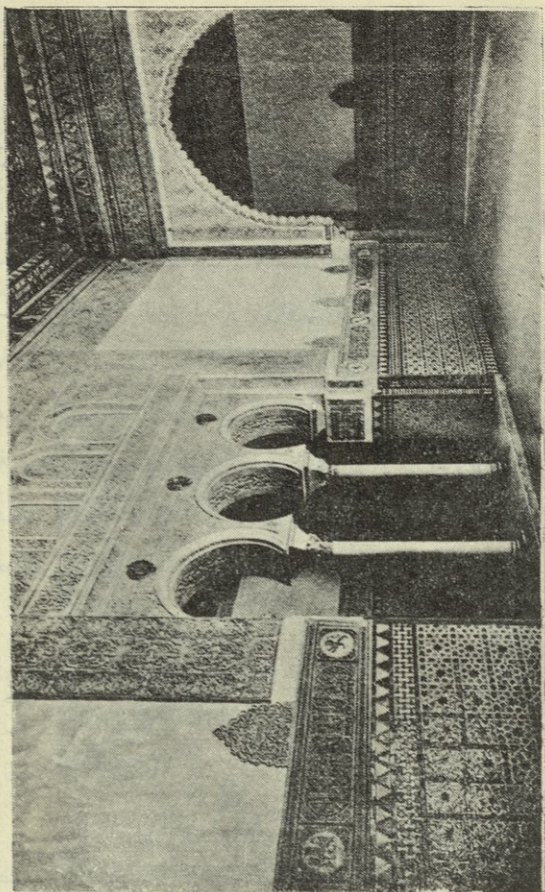
مأذنة (الجيرالدا) في اشيلية

اما وقد بلغ بنا المسير الى (القصر) فلا بد من كلمة عنه لان فن اشبيلية يمثل « دور الانتقال » :

نزل العرب البلاد الاسبانية ومضى وقت ليس بالقليل ساد فيه الامن ودانت لهم البلاد وحسنت الحال وكثر الخصب وامت الثروة فاستأنس العرب بتلك الديار وراقهم جوها ولطف نسيمها وعذب مائها، وخاصة كثرة شهبها بالبلاد العربية ، لذلك اطمانت نفوسهم ولم يعودوا يشعرون بانهم غرباء عن الديار ، فبنوا القصور الفخمة والمساجد الكبيرة وملاؤها بالتحف والنقوش لأنهم الفوا حياة المدن ولم يشعروا ان هناك ما يدعو للخوف والحذر ، او ان هناك عدواً يرقبونه ويخشون بطشه ، فتحضروا وعيشة الحضر تورث الرفاه والحياة الهنيئة .

يدلنا على ذلك ما نشاهده في هندستهم ، ومن خلال خطوطها ونقوشها التي تختلف وجامع قرطبة تماماً . واشد هذه الآثار بروزاً في اشبيلية ، نراها في قصر الخليفة وهو البناء المعروف « بالقصر » Alcazar .

علمنا ان الفن للبلاد كالظل يتبعها في تطورها وبما ان مركز الحضارة الاندلسية في ذاك العصر انتقل من قرطبة الى اشبيلية ، كذلك الفن انتقل معها ليتبعها في انقلابها السياسي والاجتماعي والادبي



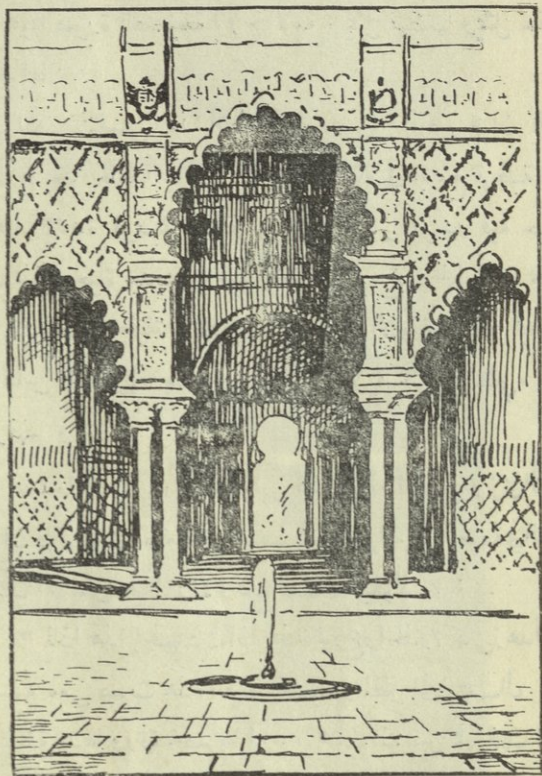
أحدى غرف « القصر »

لان الفن هو الصورة الصحيحة لروح الامة ، يمثل نهضتها ويمثل سقوطها وكافة احوالها .

اذن لنتلمس هذا التطور الجديد في « القصر » ان القوس في ابنتها لم يعد جامداً جافاً كالذي نظرناه في جامع قرطبة ، ولا الاعمدة هنا كاعمدة قرطبة ، فالقوس في « القصر » يبدو فيه حركة ، فيه دلالة ، فيه حياة جديدة ، فيه الاناقة والبذخ والطمأنينة ، وفيه الكثير من حب الحياة واللهو وشيء من الانوثة ، شعر ايضاً ان هؤلاء الناس اغنياء مغرمون وشعراء لا يفكرون بشيء سوى عزهم وترفهم .

عندما نتأمل في احد اقواس هذا البناء الجميل ونرى التخريم في الجدران والرقعة في الاعمدة والالطف في الاحواض والنعمومة في النقوش نسمع كأن المهندس حينما اراد وضع تصميمه يقول لنا :

« لماذا هذا الجمود ؟ لماذا هذا الورع والحذر ؟ كفى زهداً . . . تعال واسمع معي صوت هذه القينة العذب وانظر الى جمال مجيهاها وتأمل رشاقة قدها ورقعة خصرها . . . » ان المهندس في ذلك الوقت من العصر الاندلسي كان يرى ويشعر بما كان يحيط به ، فمتأثر به ايضاً ، لذلك وضع لنا هذا النموذج الذي فيه صورة نفسه وصورة عصره معاً .



قسم من دار العذارى في « القصر » اشيلية

ولا بد للداخل اليه اليوم ، من التساؤل عن شدة الظلمة المستحكمة في هذا المكان ، اذ لا يكاد يرى شيئاً الا بالجهد لاعدم وجود الشمس وهي قوية جداً في تلك البلاد بل لان بعض المستلطين عليه احبوا الظلام فسدوا كل نافذة وحجبوا كل نور من الدخول اليه واوعدوا دونه كثيراً من الابواب التي كانت تريد عن المنة عدأ .

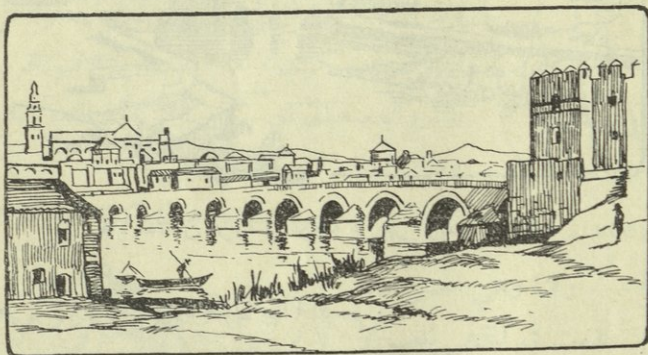
لذلك اظلمت جوانبه ، وخبث انواره ، واقفرت نواحيه ، وهناك في بعض زوايا الخالكة بدت بعض شموع شاحبة كنفس امضها الداء فهي في حشرجة الموت ، هي كتزاع الفن الجميل البائس في قلب هذا المكان ، وقد ساتت من تلك الشموع بعض فضلات هي اشبه بعبرات الشكلي وانتشر دخان امترج مع زفرات الشموع وبدت هناك بعيداً بعض اشباح قائمة ، فتكون من ذلك منظر مرعب كله حزن وكآبة ، قتل كل ما كان فيه من ألوان وانوار وجمال .

وبعد كل ما ذكرته من التحف والروائع الباهرة ، الا يعجب الانسان ان يرى اكثرها متهدم وان يرى الكلس وضع فوق القيشاني والطين على الفسيفساء ، او ان يرى قسماً منها اقتلع من مكانه وآثار ضربات المعول لا تزال باقية على هذه الدرر الغوالي ؟ افلا يروع

الانسان ان يعلم ان قسماً من الابواب التي هي من خشب الارز المرصعة
باجمل النقوش قد بيعت بانجس الاثمان . . . وبعضها استعمل للوقود ؟
الا يدesh ايضاً عندما يرى تلك الاعمدة وقد جرفها طوفان
من التراب غمر ارض الجامع مقدار متر ونيف ، بل الا يستخط على
البشرية اذا ما شاهد تلك الاعمدة وقد اقتلع بعضها فبات اكثرها
هاوياً يكاد يسقط ؟ ولماذا ؟ . . . كل ذلك الكمي يبني الماو كقصوراً
وبيعاً لهم ؟! ولو كانت على شيء من الفن والذوق لهان الامر . . . آه
ولكن هنيئاً لمن لا يشعرون ! . . .

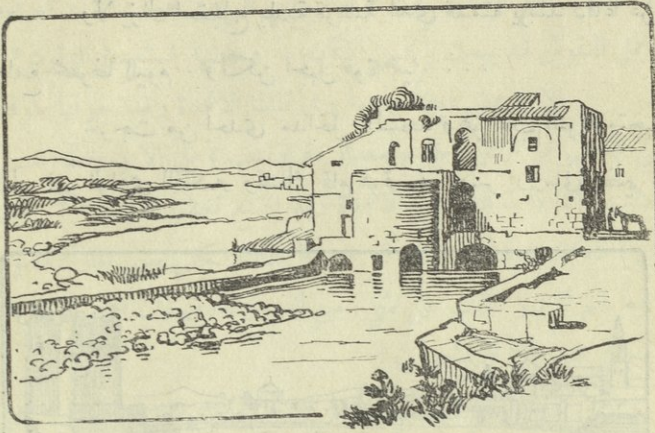
نحن لانود سرد الفظائع او المجذرة الفنية القاسية التي
يشاهدها الزائر هناك وهي كثيرة ، ولا نحب ان نوتي ، فرتية الاندلس
لم تبق ولم تذر ، ولا نستعرض حوادث تاريخية موثرة فهذا ما يعني
التاريخ ، انما نحن هنا كما ألمت آنفاً ، نبحت عن الفن بصورة خاصة ،
لكن لا بأس ان نسمع ما قاله في تلك الفظائع « شارل كان » عدو
العرب المنصف ففيه كفاية ، قال متأثراً وأسفاً عندما زار هذا الاثر
النادر ، وشاهد ما فعلت به ايدي الجهلة والمتعصبين من ابناء قومه قال :
« لقد بنيت اشياء عادية مبتذلة ملأت كل مكان وهدمت
تحفة بل عجيبة من عجائب الدنيا التي لن يسمح بثلاثها الزمان » .

ولا يزال احتجاج بلدية قرطبة الذي قدمته يومئذ دفاعاً عن
الجامع محفوظاً لليوم . ولكن الجهل قوة عمياء . . .
خرجت من احدى مداخل المسجد وهو باب التوبة متجهاً
شطر نهر الوادي الكبير وهناك قام فوقه جسر روماني عظيم ،



مسجد قرطبة المطل على الجسر الروماني المنصوب فوق
نهر الوادي الكبير

وعلى رأسه ابراج عربية .
ثم ظهرت لي ايضاً على ضفاف النهر بقايا طواحين عربية ،



بقايا مطاحن عريية في قرطبة على نهر الوادي الكبير

وهي كثيرة ومشهورة هناك بهذا الاسم .

رجعت للبلدة ماراً بساحتها الصغيرة ولا يوجد غيرها ، وهناك
في وسطها اقيم تمثال بروتزي تحليداً الى « كابا لايرو كامبيادور » محرر
قرطبة ومفخرتها يرى فوق ظهر جواده ينظر بعظمة وتيه .
ثم أجلت الطرف في هذه الساحة اتأمل في الميئات الغريبة
حولي . هنا جماعة وقفوا يتجادلون وصراخهم ملاً الفضاء واشاراتهم

المتكررة لم تكن دون حديثهم اناقة ، وقد
ارتدوا قبعات مرتفعة القرص جداً وقاسية ذات
دائرة واسعة ، فظهر قسمها الاعلى كانه طربوش
مكوي ثم تبعها وجه اسمر محروق حليق ، وعيون
سوداء حادة ، وازف يدل عن صلابة وانفة ، اما
لون « الجاكتة » فزيتي وهي ذات قبة مقفولة على
الطراز العسكري ، اما « البنطاون » فهو اقرب
للسروال منه الى اي شيء اخر ، اذ اتسع اعلاه
وضاق اسفله كالسروال الشامي تماماً .



وتجمهر من الناس هناك كتلة ثانية فثلاثة

ملك اندلسي (قرطبة)



الخ . . . وفئة وهي احسن حالا
قد جلست في المقهى تلعب او
تشرب وبعضهم اتكأ على
كرسيين وقد غلب عليه النعاس
فنام . . .

ان الفقر والكسل قد غلبا

على حالاتهم ، لكنهم طيبو القلب كثير و
الشهامة فيهم مع ذلك مرتاحون وقلما
يعرفون السياسة !

و كأنما جمال الطبيعة ونور الشمس
تطرد الهموم ، فتراهم يضحكون بل .
نفوسهم . انهم متكلمون ايضاً ، ينامون
ما يربو على سبع عشرة ساعة يومياً فكأنهم
يقضون حياتهم نياماً .

واظن ان هذا هو السر في



كثرة المتسولين والعاطلين

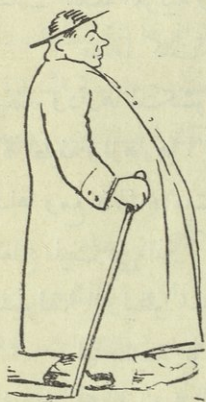
عامل اندلسي

والمغنين وكلمهم مكثف بالقليل من اسباب
العيش والحياة البسيطة وشي . من الغناء ، وضرب
الكستنائيات والرقص ثم الكثير من الاحلام حيث
يبنون منها قصوراً اسبانية .

كذلك فهم يلهون بالحب مع نساء غيورات
اجمل ما فيهن عيونهن السوداء وابتساماتهن الساحرة .



فتاة اندلسية



كاهن اندلسي

ولكن يجب ان لا ننسى قط
كثرة بائعي اوراق اليانصيب فقد ملأوا
الشوارع والزوايا ويظهر لي ان هذا الشعب
مقارماً فظيلاً يجب المغامرات .

اما (البيانو الجواله) بيانو
ميكانيك ، فانها لا تزال هناك معرزة
الجانب موفورة الكرامة . . .

بينما كنت اسير في احد الشوارع
واذ صوت غناء عربي يرن في اذني ، اصحخت

بسمعي فاذا هو حاك ،

وكدت لا اصدق اذني . انه (فونوغراف) عند احد
بائعي الشرابات ، فاستغربت ما اسمعه ، اني اسمع
لحناً عربياً لاشائبة فيه ، يشبه كثيراً اللحن (البغدادي)
وبعضه اللحن (الشامي) ولكن الاجل من كل ذلك
هتافهم وصرائحهم للمغني آه آه . . . استحساناً لغنائه
كما هي الحال عندنا . وكلما توغلت في جنوبي الاندلس



شرطي

اشتدت النعمة العربية وزادت قوة .

عندما كنت اطوف شوارع قرطبة الضيقة استوقفتني دورها
البيضاء ودارها المكشوفة (Basio) باسيو وهي جنينة وفي وسطها
بركة لطيفة وازهارها اكثرها الياسمين والفل التي ملأت الجو بلطيف
شذاها ومع ذلك فالقيشاني بالوانه الربيعية ظاهر في جدران البيوت على
ارتفاع ينيف على المتر كما هو ايضاً في المقاهي والدكاكين وسواها
ويدعونه (ازوليخو) .

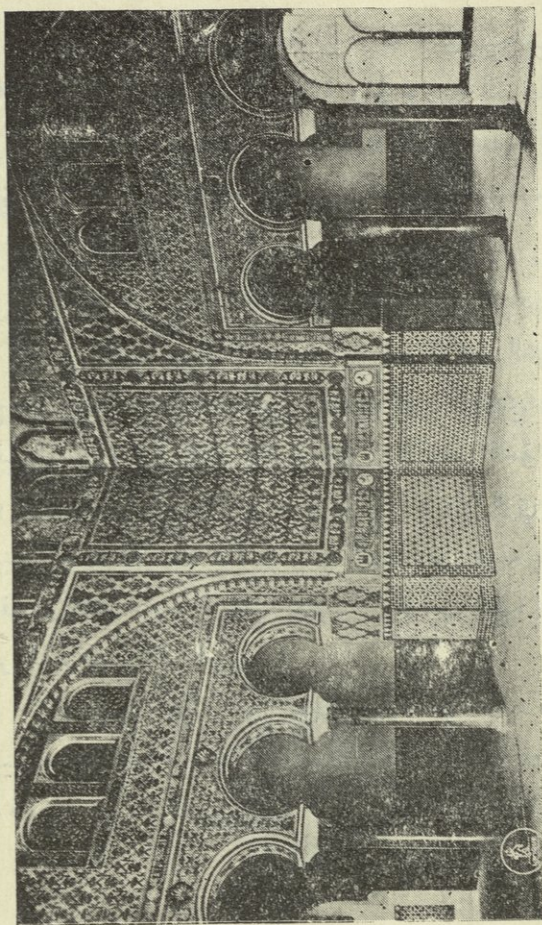
اما مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمن الناصر لدين الله
تلك المدينة الزاهرة العجيبة ، فقد ذهبت جهودي عبثاً بالبحث عن
بقاياها ، لانه لم يبق منها اثر . وقد قرأت اخيراً نبذة عنها بان احد
الرهبان بينها كان يحفر في ارض هناك عشر على اثار نفيسة جداً منها
تماثيل طيور وأشخاص غاية في الاتقان والفن .



لننظر الى الاعمدة اللطيفة المزدوجة والى تيجانها والى
حناياها المخرمة والى الجدران المزركشة والى نوافرها التى تطوف رقة
وشعراً . الا ترى الفرق العظيم بين هندسة قرطبة وهندسة اشبيلية ؟
الا ترى هذه الاساطين تحمل كثيراً من قوام تلك الحسنة ، ومن صوتها
ومن عذب اغنيتها ؟

لندخل الآن الى « القصر » ونشاهد آثار بني عباد .
على مقربة من الكاتدرائية شيد قصر الزهراء الشهير ويرجع
تاريخ بناؤه لعصور مختلفة ، اما بوشر فيه فى القرن الحادى عشر وقد
تم القسم الاكبر منه فى القرن الثالث عشر . و « لاجل الذمة » يجب ان
نقول ان قسماً من الواجهة ، وان لم يكن رائعاً ولا مجيى فناً ، فهو
من بناء (بيارله كروبال) كما ان (شارلكان) هزته عاطفة الفن
فاضاف الى القصر نقوشاً (يونانية رومانية) شوهدت لسوء الحظ جمال
القصر لتنافرها مع الفن العربى .

ويجب ان نقول ايضاً ان قصر الزهراء هو الوحيد من الآثار
العربية العديدة التى نجت من نقمة ملوك الاسبان بالنسبة لغيرها ، ومع
ذلك فهى لم تنج من طلائها بالكلس الذى كان شائعاً « كروضة » فى



احدى قاعات « القصر »

ذاك العهد . اقول حفظ من الهدم لاجباً في الفن بل لأن الماوك اتخذوه
سكنناً لهم وهذا بديهي لانه لا يوجد قصر في تلك الديار على شاكلته
من الفخامة والابهة جدير بسكن الماوك .

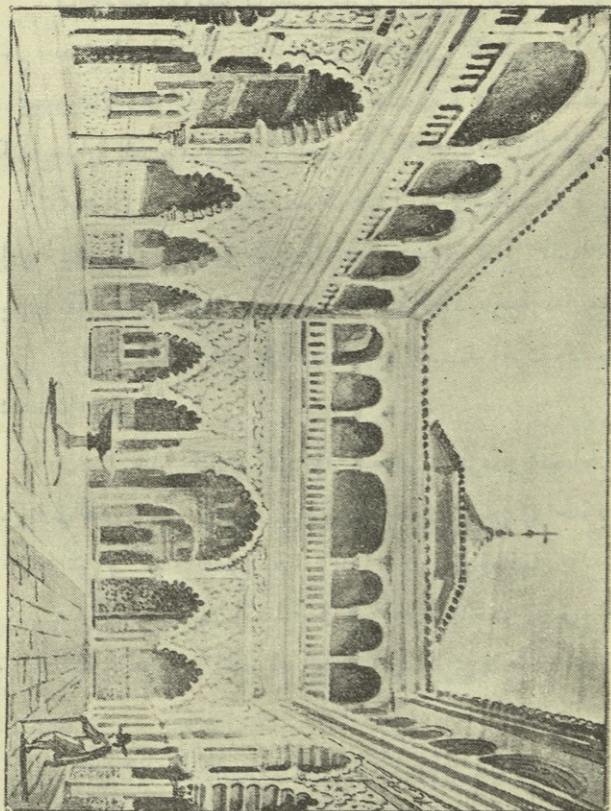
وقصر الزهراء هذا يمثل عهداً متوسطاً من نسق البناء العربي،
وروحاً طليقة حرة اكثر من فن قرطبة واقل من فن الحمراء ، ولا
شك انه فن يمثل التطور الاخلافي عند العرب في الاندلس ، فبينما نرى
فن قرطبة يتم عن رصانة وكثير من الورع والحذر بخطوطه الجامدة
واقواسه الضخمة ونقوشه الهادئة ، دليل حياة الجد والعمل ، نرى فن
اشبيلية يميل الى الرقة والشعر والترف بما تبديه لنا خطوطه المتعرجة
فوق الاقواس والابواب فانها تظهر متحركة ضاحكة يكاد لا يوجد
بيدها خط مستقيم وجدرانها كلها محرمة او مكسوة بدقيق النقش .

ان منظر الزهراء الخارجي يكاد يكون بسيطاً ككل
بنايات العرب فهو لا يدل على ما يضمه البناء من جمال وبذخ وترف ،
للعز في طياته آثار وللحب شدى .

هي دار انيقة فرشت ارضها بالرخام ، اما سقفها فقد اتخذ من
السماء قبة زرقاء صافية . وحسب عادة العرب وحبهم لمنظر المياه ، فقد
سكنت في وسط تلك الدار نوفرة صغيرة تبعث حباتها الماسية .

وقد احاط بالدار رواق فخم ذو قناطر محرمة وقامت على
اعمدة رشيقة مزدوجة من الرخام ثم اكتست الجدران بدقيق النقوش
كالتنتناء ، ويتلو هذا الرواق غرف كثيرة لا يمكن لاحد ان يفضل
واحدة عن اختها مجالها وبديع زخرفها وما فيها من عجائب ، وهناك
الآيات والحكم تخللت تلك النقوش بتناسب وتناسق عجيب .
وهنا دار تعرف بدار العذارى لانه يقال ان الملوكة كانوا
يستعرضون فيها كل عام مائة عذراء تقدم هدية لهم . . .

واظن ان في هذه الدار ايضاً لعبت اعتماد زوجة المعتمد بن
عباد ومعبودته المدللة مع وصيفاتها بارجلهن العارية بالطين ولكنه طين
من الطيوب ، وذلك يوم راقها منظر القرويات يلعبن في الطين ! . . .
وفي حديقة القصر ايضاً كان لها نادرة الطف فقد اشتمت
اعتماد العزيزة ، الثلوج في اعالي الجبال يوم زارت قرطبة فتمنت ان
يكون لها مثلها في حديقة القصر وفوق هضاب اشبيلية . فخصع الملك
العاشق فاذا الحديقة غابة بيضاء ناصعة واذا هضاب اشبيلية متوجة
بزهر اللوز . وقد يظن القاريء لغرابتها انه ضرب من الخرافات
ولكن الغزي يأتي بالعجائب . . .



اشيائية ، دار المذارى في « القصر »

والخلاصة اني بعد ان ثملت بجمرة هذا الفن السماوي هبطت
على سلم سحري الى الحديقة والاصح الى الفردوس الارضي فلم تكن
دون القصر جمالا وغبابة . رياض خضراء متنوعة ، ثم برك وفسقيات
باشكال جذابة تلعب بالمياه والمياه تلعب بها وكلاهما يلعبان بالناظرين .
ثم هناك اماكن ظليلة يضمك فيها الزهر وتكاد تغرق بين
الخائل والرياض لولا انه يبدو من بينها ذروة مقصورة هناك حملتها اعمدة
رخامية رشيقة وكأنها حسان رومية شمرون عن افخاذ عاجية .
ثم هناك المياه ترقص في وسط احواضها مغردة فتسحر
بانشادها السامعين .

ان مثل هذا كثير وكثير جداً فكنت اطوف هذه الجنان
واتأمل بما في القصور من روائع وفن وثروة فاحسب نفسي في الجنة بين
حور عين وأتمنى لو كنت اعيش مع من بنوا ذلك وفي زمانهم .
عند الفجر ودعت اشبيلية وزهراءها وجنحت بروحي نحو
شقيقتهما غرناطة وعينها الحمراء الفاتنة ، وخاطري لا يزال يرفرف
فوق اشبيلية .

وكان جمال المناظر وزر كشة الجبال باسجار الزيتون يخفف
بعض اللوعة ، فالاراضي امتدت والسهول تلونت ما بين اخضر فاقع

وقاتم واصفر وبني تنتهي بهضبات مرتفعة كللها شجر الزيتون ، ثم هناك الافق يلامس سماء صافية نيرة .

قضينا ردها من الوقت ننعيم بمثل هذه المشاهد الخلابه واحياناً تجمعت في وسط هذه السهول بعض بيوت قروية من بقايا القرون الوسطى وقد خيم الفقر فوق سطوحها الحقيرة المهتمة .

مضت ساعات واذا بالمناظر بدأت تفقد زهوها ورونقها وكثيراً من خضرتها واخذت اليبوسة تد بساطها ، فلا يُرى الا صخور صماء وشمس محرقة وأرض جرداء ترى فيها قروي ممتطياً صهوة حماره الصغير ورجلاه متدلّيتان تكادان تلامسان الارض . وكنت اعجب من صبره فهو يسير في جحيم لا اثر للظل في جنباته .

وكانت المحطات في طريقنا هنا فقيرة جداً كارضها الجافة ، وضحورها التي تصب عليها الشمس حرارتها فتبعث ناراً . ولا أمل للمسافر طبعاً ان يجد في زواياها ما يشربه أو ما يسد به رمقه ، نحن في صحراء مقفرة فكيف يعيشون فيها ؟ مع ذلك لم نفقد الامل فاحياناً كان يأتي للمرربات بعض رجال هيئاتهم مخيفة بعيون تنقد شراراً ، اتوا يعرضون على المسافرين امواساً مختلفة القياس وبينها كبيرة وحادة جداً تكفي لذبح ثور . . . وايضاً كانت تأتي الى المحطات نساء

واطفال بجرار من الماء وقدح واحد . . . فلا يسمع سوى منادين :
(آكوا فريسكا) ماء بارد وكأوز سخن فالحمد لله على نعمه . . .
ولي وصية مجانية لمن اراد السفر الى تلك المنطقة ان يهيئ
زوادة من اشبيلية قبل الرحيل والا . . .
و كنت دائماً اتطلع من نافذة القطار لاشاهد غرناطة الجميلة
بل لارى الحمراء . ولكن المسافة كانت بعيدة تبلغ ما يزيد عن
اثنتي عشرة ساعة . الا انني كنت امل بكافئة طيبة ، هي الامل
بمشاهدة جمال الحمراء ، الذي كان ينشطني ويزيدني قوة ويخفف عني
وطأة الحر وشدة الظمأ .

وكان ممن ضمتهم القاطرة التي انا فيها نسوة ورجل وكاهن
وطال السكوت بنا كما طالت المسافة ، واخيراً سألتني المحترم السؤال
الذي يلقي عادة بين المسافرين : انه ليوم شديد الحر . او نهار جميل
او من اين آت والى اين ذاهب الخ ؟ . . . وكان ان سألتني وجهتي
فاخبرته ، طبعاً عرف من لهجتي بانني غريب عن البلاد فتقرب بالحديث
وتلاطف ، لان الاسبان من طبعهم حب الغرباء واکرام الزلاء
وملاطفتهم . وقد بلغ بنا الحديث الى الآثار العربية ، فاخذ ينشد
جمالها ويطنب بعظمتها ، و كنت لا ازال اتألم مما شاهدته في جامع

قرطبة واشبيلية من الفطائع الفنية لذلك ترك بسوآله مجالا لاختف
ما يي من ألم وكان حديث حار انتهى بان اقتنع مخاطبي بان حالة
الاثار على ما هي عليه لا تتفق ومصالحة البلاد المادية والمعنوية .

وكان القطار قد بلغ عند الساعة الثانية عشرة محطة
« بوابديل » تحريف لابي عبد الله ، فودعني المحترم ورفيقاه ووجهتهم
(مآلقه) لان هذه المحطة مفرق خطي غرناطة - مآلقه .

وشعرت بالجوع لانني لم استعد استعداداً كافياً قبل تركي
اشبيلية . فدخلت مطعماً بسيطاً كالذي يوجد عادة في تلك المحطات
الصغيرة حيث يدخل المسافر مهرولاً ويأكل حشواً ويدفع هارباً ليلحق
بالقطار لاهتاً يلعن بروغرام سكة الحديد الفظيع .

تابع القطار سيره نحو غرناطة وهنا بدأت تتغير علينا المناظر
وبدت لها نضرة ورواء وكان الاخضرار ينثر بساطه الجميل في السهل
والجبل وانسابت المياه في الجداول فاستقامت على ضفافها اشجار الحور
والصفاف ، وكانت تبدو علينا الفينة بعد الفينة بعض بيوت قروية
اقل بوئساً من السابقة ، وحياناً نشاهد معامل للسكر .

ان المناظر البديعة التي كانت تمر امامنا لم تمنعني من ان أجيل

الطرف المرة بعد المرة في وجوه المسافرين وهيأتهم المختلفة وكان بينهم
اندلسية حسناء تسلمحت بناظرتين عربيتين الله منها !!! . . . فيها سقم
ويورثان سقما ، تنظر الى من حولها غير مبالية كأنها اميرة فرت من
احدى مقاصير الحمراء ، او قصر الزهراء ، تنظر الى المسافرين الذين
كانوا يجردون بها كأنما يقرأون على وجبها بعض اساطير غرام . وكان
على شفيتها ابتسامة ملعونة كأنها تقول :

القوا لي بنظراتكم العاوية واودعوها ما شئتم من عطف
وغرام ولكن لا ترقبوا مني رحمة ولا شفقة ! . . .

اما القطار فكان يسير ببطىء لاهثاً كمن نزلت به الشيخوخة
وهو بحاجة الى الراحة او الاحالة للتقاعد .

سار القطار ساعات بين جنات ، اقول جنات لما كنت اشاهده
من خصب وغياض وثروة ينطبق تماماً على هذا الاسم .

وان يكن اكثر هذه الاراضي مهملات وطريقة حرثه عقيمة
كنت اقول في ضميري وانا انظر الى ذلك : لو اتيح للفلاح البناني
ان يعمل في هذه الاراضي بالهمة والجد اللذين يبذلها في صخوره لجعلها
اغنى ارض في العالم وتحلى بالذهب وتسربل بالحريز .

ان طارقاً لم يكن مبالغاً في وصفه فيما كتبه للخليفة في دمشق

عند الفتح يصف له خصب تلك البلاد واليك ما قاله :
« الاندلس هي سوريا بجبالها وسماؤها وارضها ، واليمن بلطف
جوها ، وهي الهند بازهارها وطيوبها ، ومصر بخصبها وهي الصين في
كثرة معادنها وحجارتها الكريمة » .

وكانت نظراتي الشاردة تذهب من نافذة القطار باحثاً في تلك
الارحاء عليها تفوز بنظرة الى غرناطة وتنعم بجبالها الذي طالما حلمت به
وعللت النفس برويته .

وعند مخرج سلسلة جبال كستها الطبيعة وشاحاً سندسياً
دخلنا سهول (فيكنا) الخضبة ونعمنا بمناظرها الجميلة وكان وصولنا
عند غروب ذهبي بديع .

لقد كنت اعلل النفس بكفاة حسنة بعد سفر ساعات محرقة
ومهاكة في قطار يشابه بسرعه السحفاة .

وما هي الا دقائق معدودات حتى اطلت علينا هضاب غرناطة
وانتثرت فوقها البيوت البيضاء وقد ردها نور الشفق وردية باهرة وعلى
مرتفع مستقل بين غياض كثيفة ظهرت ابراج مربعة الشكل ثم سور
عظيم عقيقي اللون هو سور قلعة الحمراء وابراجها الشهيرة ، حيث
ستقرت خلف جدرانها روائع الفن العربي . والذي زاد المنظر رواء

جبال «سيارا ننادا» اي جبال الثلج ، القائمة وراءها وقد تعممت ذراها بالثلوج الدائمة .

ان الحمراء اروع تحفة فنية بنيت في اجمل موقع فجمعت الجبال والكيال ولذلك فهي فريدة نادرة ، تركزت على قمة الهضبة فاشرفت على غرناطة وسهوها الشاسعة الخصبة وهي بموقعها هذا تمثل منظراً وحيداً من نوعه فابراجها البارزة تحيط باطراف الهضبة كافة ، فتظهر للناظر كأنها تاج ذهبي على مفرق حسناء تنتهي قته بزرقه السماء ويغوص اسفله بخضرة خصبة بالغة .

عجبت جداً حينما وقف القطار ووقع نظري على اسم غرناطة الجميل وقد خط على محطة بسيطة .

وراحت السيارة تشق طرقاً بسيطة بين ابنية ليس لها نسق خاص وسار في وسطها قطار كهربائي راقص ، اما البسة الناس فهي ليست محلاة كما هو شأنها في غيرها من المدن الاندلسية .

نظرت ذلك فقلت : اهذه هي غرناطة ؟ اهذا هو البلد الطائر الصيت ؟ البلد المجيد الذي كان من اكبر عواصم اوروبا والذي كان محجة الملوك وكبار الرجال ، المدينة التي كانت لخمسة اجيال خلت تضم نيماً ونصف مليون من السكان وكانت مركزاً هاماً للعلوم

والفنون؟ ما افظعها خيبة! . . .

ورغم وصول القطار متأخراً لم ينعني ذلك من الذهاب توأ
لزيرة قلعة الحمراء غير شاعر بتعب السفر، سرت قاصداً نحو التي يجلم
بها المسافر طيلة اسفاره، وتحقق لها قلوب الادبا. والفنانين، ويتعنى
بجمالها الشعراء وتلمع لذكر اسمها عيون الغانيات. هيا نحو «اكربول»
العرب المجيد. وكنت في اثنا مسيري تطل علي ابراجها من خلال
البيوت وتحجبها عني الاشجار الباسقة حول اسوارها.

الحمراء هي: سور وقلعة وقصر، لذلك يبدو منظرها
الخارجي كأنه قلعة شأن اكثر القصور الاندلسية التي لا يدل خارجها
علي ما تضمنه من جمال ودقة وابداع.

ثم اخذت اصعد في طريق تعرف بطريق (قوماليس) تنتهي
بباب ضخمة خشن الهندسة ثقيلها، نقش في اعلاه ثلاث رمانات متفتحة
رمز مدينة غرناطة واسمها^(١)، وهو من بناء شارالكان. وهناك بركة
ضخمة افظع من الباب كتب عليها مقدمة وتوجد اطول من البركة
نفسها كل ذلك في سبيل حوض ماء لا يعرف للفن معنى! . . .

وما كدت اجتاز هذا الباب حتى ارتفعت امامي غابة ذات
اشجار عظيمة مشتبكة يترقبها مريض متعرج يتلاشى في اعماقها،

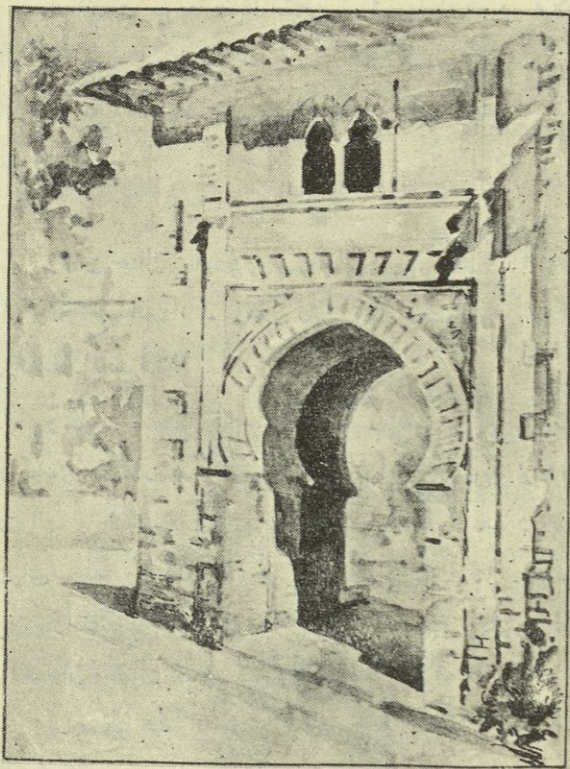
(١) اسم البلدة في الاسبانية Granada ومعناه رمانة .

وهناك ظل ظليل ونسيم رقيق ينشر في الجو رائحة زكية وسكون مهيب تقطعه احياناً اغاريد الطيور وخير المياه المناسبة على طرفي الطريق الصغيرة .

وكان يبدو لي في جوف هذا الغاب ومن خلال اشجاره القائمة انوار سحرية فجددت في السير نحو هذا النور المنبثق ماراً ببقايا اسوار وانتهيت عند برج مربع الشكل دموي اللون وله باب عظيم وجميل رغم ما في خطوطه من بساطة ، انما كل السر في الفن العربي هو فهمهم تأثيرات الظل والنور وما ينشأ عنها من روعة ورواء .

وهذا الباب يبلغ ارتفاعه ما يزيد عن الستة امتار ذو قوس بشكل (نعل حصان) وهذا المدخل يعرف (بباب العدل) وهو احد مداخل قلعة الحمراء . وقد نقشت في اعلاه يد منبسطة الاصابع ، رمزاً لقواعد الاسلام الخمس ثم مفتاح كبير للدلالة على ان هذه البوابة هي مفتاح القلعة .

ثم كتب على احد طرفيها كلمة الشهادة وعلى الثاني كلمة الحوقلة وهناك تاريخ بنائها في عهد ابي الحسن يوسف من بني الاحمر خمسة قرون خلت ، ثم في اعلاها تمثال العذراء فأعجبتني هذه المصاحبة اللطيفة والاتفاق الرمزي .



باب الخمر كما يدعوه الاسبان - (الحمراء)

ثم اتبعت طريقاً ضيقاً انتهى بي في ساحة مغروسة بالأشجار هي «ساحة الجب» لان فيها للآن بئراً كبيرة ذات مياه عذبة للغاية .
ثم هناك ايضاً بقية اثار منها باب يدعوه الاسبان باب الحمر الجميل وهو من بناء بني نصر .

* * *

وقفت هناك متردداً وقد ملكتني الحيرة ، أذهب نحو الحمراء ؟ فارتاع واجفأ ، ام اذهب الى «الجزاليف» ؟ أم الى القصبه ؟ ام الى حديقة المعشوقة ؟

وكانت الشمس قد جنحت للمغرب فحرصاً على الوقت وكان جدمين عندي ، التفت يسرة حيث حديقة و ابراج (بولفييري) و(فالالا) فهروا اليها ماراً مجديقة و باب صغير ضيق . صعدت عدة درجات حتى انتهيت الى سطح برج (فالالا) وهو برج عظيم يزيد ارتفاعه عن ستة وعشرين متراً قائم على شفا هاوية مريعة من الهضبة ، ذو بناء عجيب ، ضخم الجدران وهناك اقبية كبيرة تسع جيشاً بعدته .

ان منظر هذه القلعة يدل بوضوح على انها لا تؤخذ الا بمحاصر سنين او بخيانة . هو بناء جبار اقيم ليحمي هذه الدرر الثمينة ويدافع عن فن الحمراء الدقيق .

من على سطح برج (فالأ) تبدو مدينة غرناطة وسهلها
الافيج بمنظر رائع مهيب ، ومن الجهة الاخرى جبال (السيارات)
الذاهبة سموماً في السماء ، وكانت ساعة غروب عجيب بالوانه ، منظر
يحمل شيئاً من فاجعة محزنة هي صورة لنفسي في تلك الساعة وانا ماثل
بين هذه المعالم الناطقة .

وبينا انا غارق في تأملاتي لغت نظري من على هذا السطح
ناقوس ضخمة ، ليس هو تحفة فنية ، بل فهمت من اللوحة الموضوعه
باسفله انه ذكرى لسقوط غرناطة من يد العرب في الاتنين من كانون
ثاني عام الف واربعمئة واثنين وتسعين ، وهذا الجرس يدق اربع
وعشرين ساعة متوالية في كل عام من مثل هذا التاريخ ، لذلك فهذا
الجرس لم يرق لي ولم ينل محبة مني لانه ذكرى سقوط مدينة باهرة
وقتل فن رائع .





الناقوس التذكاري في اعلى برج « فلا »

هناك في وسط هذه السهول المنبسطة تحتي ظهرت لي الهضبة
المعروفة باسم « سوبيرو دلمورو » اي زفرة المغربي . هناك ترآى لي انها
تسير قافلة عربية منهزمة . هناك وقف الامير الفتى ابو عبد الله وقفته
المفجعة ملتفتاً نحو « فردوسه الضائع » نحو غرناطة والحمراء التي كانت
تتلاشى شيئاً فشيئاً وراء الافق واذا هي بعد قليل كحلج من الاحلام .
عندئذ بكى ابو عبد الله بكاء الشكلى . في هذا المكان قالت له
والدته كلمتها المشهورة : « ابك اليوم بكاء النساء ملكاً لم تحافظ
عليه كالرجال » .

انها لساعة قاسية وهائلة جداً حينها كان ذاك الامير التعيس
ينسحب مغلوباً على امره .

لاريب انها كانت كذلك ساعة سرور عظيم حينها نظر
فرديناند وايزابلا راية (الكاستيل) تحمق فوق اعلى برج في الحمراء
عندئذ ترجلا عن جواديهما وسجدا شكراً لله على فضله . ثم ابتما
لحلاوة الظفر بعد حصار دام عشر سنين .

بالفاجعة !! اسطورة هذا الامير الفتى كما كان يلعبه الاسبان ،
وكم فيها من عبر ! . . .

تزوج السلطان ابو الحسن صاحب غرناطة من عائشة ورزق

منها ابا عبد الله وكان هذا (ابو الحسن) شرهاً جداً ، فاتخذ له محظية هي ثريا الاسبانية الحسناء .

تارت الفيرة في صدر عائشة وخافت على حق ولدها في العرش فهربت الى قادس (Cadix) واعلنته ملكاً ، فاثارت بعملها هذا حرباً اهلية بين قبيلتين من اقوى قبائل العرب وهما الزغريون وآل سراج . كانتا تتقاتلان في طرقات غرناطة ، بينما كان العرب في حرب اخرى مع الاسبان .

نجح الولد في خلع ابيه عن العرش ولكن هذا الملك الطفل الذي ساعده اخواله ومنهم خاله (الزغل) الذي اغراه « الكرسي » وم اغرى مثله . . . لذلك اصبح في غرناطة ملكان يمزقانها بالانقسامات والثورات الاهلية . وبالطبع عرف الاسبان الساهرون الساعة الملائمة لاجراج العرب فاخذوا بالاستيلاء على الاندلس بلداً بعد اخر حتى تم لهم احتلالها بلا تعب .

في الساعة الاخيرة دخلت الحكمة رأس (الزغل) فتنازل عن العرش وذهب الى حيث . . . تاركاً الحمراء لابي عبد الله وحده ولكن بعد خراب البصرة . . لان هذا الفتى لم يهنأ بعرشه المتداعي ، ان فرديناند وايزبلا قد سدا عليه الطرق كي لا يتصله نجدات وموثن من

افريقيا . ثم جلسا هناك في سهول (Vega) ينظران اليه يوت جوعاً
منتظرين الدقيقة العظيمة التي يأتي اليهما فيها الامير بنفسه ليقدم مفاتيح
حرائه ، وذلك اقصى امنيتهم ، انهما لم يفكرا قط بالهجوم على هذه
القلعة ، ولا ان يبرقا دماً لانهما كانا يعلمان يقيناً انه لمن الحمق الاستيلاء
بالقوة على مثل هذه الحصون الجيارة .

واخيراً نفذت المون عند ابي عبد الله وقرق الجوع من صفوفه
فاضطر للتسليم بروح لا تعرف البطولة والشمم ، وقد تركوه يرحل الى
مراكش قانعاً بسلامة روحه . . .

والغريب انه لم ينس ان يتأبط معه الى فاس بعض مفاتيح
قصره الحمراء . أملا العودة اليها يوماً . . . ولكن هذه المفاتيح رقدت
معه هناك ! . . . وهي لا تزال نائمة . . .

تلك أساة من تاريخ آخروك الاندلس لا تخلو من عبرة .
تلك المدنية العظيمة التي استمرت ثمانية قرون وقد بلغت
الذروة ، اقل نجمها الساطع وهي لا تزال تهوي في سقوطها . هي
كهنه الشمس التي كانت لساعات خلت في كبد السماء تضيئ
بنورها العالم بأسره ، ها هي امامي الآن تغيب وراء الافق تاركة لهيباً
دامياً وظلاماً شاملاً .

نزلت من اعلى البرج ودخلت فندقي وكانت علي ليلة عبوسة،
واخيراً ابتمم الفجر فلاح من خلال ثناياه نور النهار ، فهزولت نحو
« الاكربول العربي » وبي من السرور مالا يوصف . ولم احب ان ادخله
من طريق العربه بل من قلب الغاب الكثيف ماراً بباب العدل فساحة
الجب فجديقة المعشوقة ، ثم التفت فرأيت قصرأً على طراز روماني
متأخر (Baroque) قبيح الهندسة وهو مهجور . فتعجبت ثم قلت
في نفسي : ترى من هو صاحب هذه الفكرة الحمقاء الذي شوه جنائن
الخلفاء باقامة هذا البناء البشع ؟
هو شارل كان !!! . . .

لقد تأثر في قرطبة وغضب من بعضهم . . . لتخريبهم الجامع
الشهير ، ولكنه هنا اصيب ، لا ادري بماذا . . . فدفعته الكبرياء الى
ارتكاب مثل هذه المجزرة الفنية .

ان فرديناند اعجب بهذه الآثار واحترمها فحافظ عليها
وحماها ، ولكن خلفه لا ادري اي شيء اصابه حتى هدم القسم الجنوبي
من الحمراء ليبنى له قصرأً يباهي به الحمراء ولم يكفه ذلك بل قد
النسق الروماني ومع ذلك لم يفلح ، فقام اتباعه من بعده بنفس التجربة
فباوا بالفشل التام ، اذ علموا ان بناء كالحمرء لن يستطيع احد أن

يأتي بثله لانه نتاج مدنية عالية وعقلية راقية ناضجة ، فتركوا هذه
الفكرة جانباً ، وها هو قصر شارل كان اليوم في خرابه موضوع
سخريه الكتاب والمؤرخين وسخطهم ، اولئك الذين لم ينسوا من
نقمتهم على جريمته الماثلة في الحمراء ان يؤدوه نصيبه من السخرية
والتهكم في مؤلفاتهم .

يستطيع الزائر ان يرى الفرق بين الفنين فيدرك حالا الفرق
بين المدينتين

خير لنا ان نتخلص من هذا الشبح المزعج ، لتقصد الى
الحمراء . اين هي ؟

اقتربت من رجل مستفسراً فاشار الى باب حقير هناك وبعض
ابنية عادية ، فظننتني تائها واسفت للاتعاب والمشاق التي تحملتها
لارى مثل هذه الابنية ! . . .

وكان حالي هذه لم تخف على الرجل فكان ينظر الي محاولا
اخفاء ابتسامة معنوية . وبعد قليل اشجعت ودخلت باباً صغيراً ماراً
بمشى مظلم وغرف متهدمة بينما كنت اتساءل : اهذه هي الحمراء
الشهيرة ؟ اهذه هي العجيبة التي يتحدث عنها الركبان والتي باتت
مضرب المثل ؟ اهذه هي قصور بني نصر يوسف ومحمد وأبي عبدالله؟

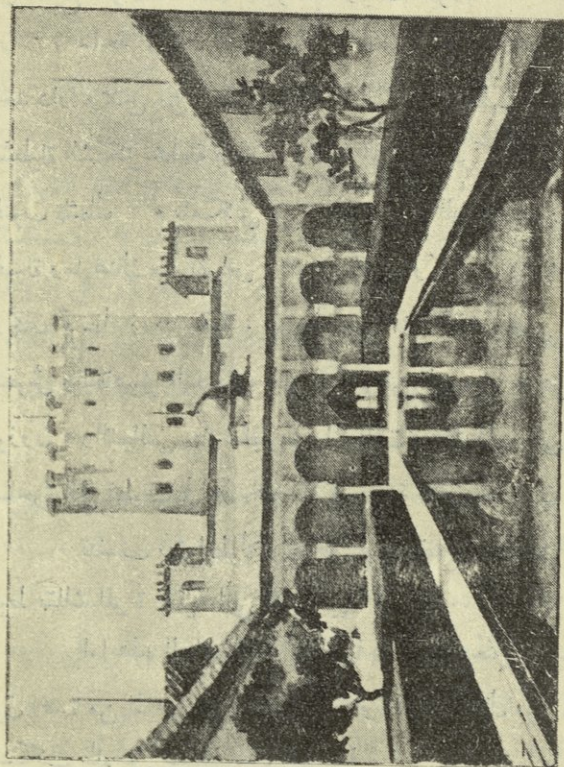
لاشك ان الزائر يشعر لاول وهلة بجميلة مريعة عندما يرى هذه الغرف البسيطة . اما انا وكنت احمل رسالة الى محافظ الحمراء من وزارة الفنون فانه استقبلني بلطف اندلسي مقدماً الي كل مساعدة، ولما انصرفت من عنده ودعته شاكرأ .

هنا دار لا تزال فيها بقية من نقوش عربية هي دار الشورى (Mexuara) التي توهم شارلكان انه اصلحها فشوها بما وضعه فيها من نقوش (اوروييه) بعد ان دس شارته الملكية في كل زاوية تخليداً لذكروه . ثم جاء من بعده في القرن السابع عشر قوم اتقيا . فحولوها الى كنيسة ، ويظهر ان البرد اشتد في تلك الديار ، فاشتروا مدفئة طليانية واصقوها هناك ! . . .

ونهاية العجب انه حشرت في هذا المعبد صور دينية ودينيوية معاً مثل : ليدا وساتير وجوبيتر؟ . . . هي فوضى بل « سلطنة روسية » ولكن بلا طعم ولا ذوق . . .

هذه الفطائع يزول اثرها عندما يدخل المرء بغتة الى ساحة الريحان المعروفة (Myrtes) او ساحة البركة ، حيث يضي سنا النبوغ العربي وجلاله ، نعم في دار الريحان تبدو العبقرية الشرقية باهرة . انني اشعر بسحر غريب يتملكني وتأثير بالغ لا يمكن لاحد ان يفسره

او يستطيع الفرار منه مهما تحجر قلبه وجف شعوره .
X > ساحة الريحان هذه اوسع ساحات القصر وهي تمثل في آن
واحد داراً ومشي من رخام وحديقة امتدت في وسطها بركة كبيرة
مستطيلة الشكل محاطة باطار من نبات الريحان ومركزها في الدار من
الجنوب للشمال . ثم ينعكس على سطح مرآتها الصافية صورة الحمراء
الجميلة وما هناك من اقواس واعمدة ونقوش وكتابات وازهار وفاكهة
وريحان ثم سماء زرقاء نقية . اني لم احب ان اشغل نفسي في البدء
بالنقوش والتفاصيل الدقيقة ، اني اتكلم عن المجموع ، عن التناسق
الموزون ، والتجانس بين الخطوط والمسافات ، تلك الموسيقى الهندسية
الساحرة التي تطوف في هذه البركة المرمرية فتفتن الناظرين .
تناسب بين الطول والعرض ثم الارتفاع ومثله في الممر الذي
يحيط بتلك المرآة المائية التي تلعب فيها الاسماك .
اما هذه الساحة فقد احاط بها رواق ذو حنايا رحبة نهضت
فوق اعمدة من المرمر هي كالشموع او كأنها شلال من الماء الصافي
انسكب ظله على صفحة المياه الساكنة .



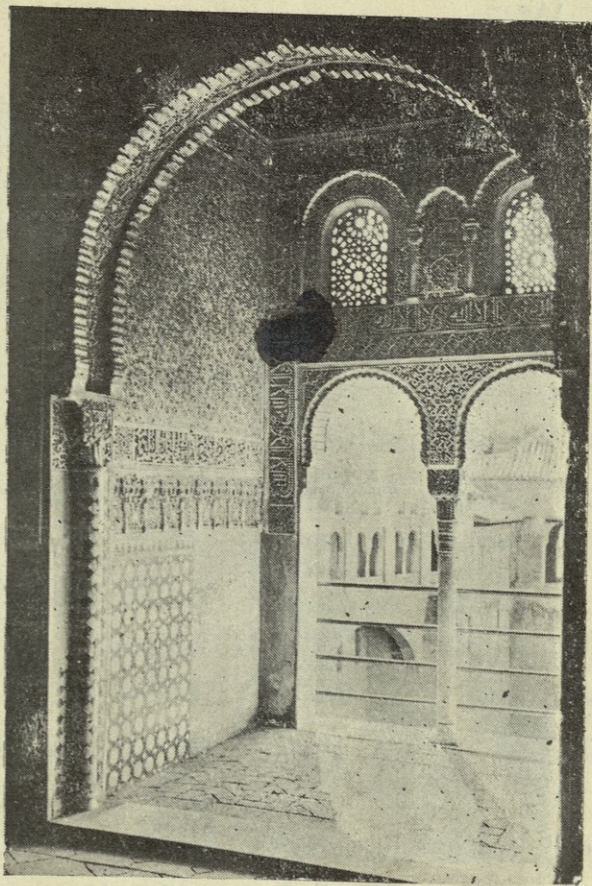
البحراء - دار الريان وبركانها

ما هذا الاطار من الريحان الفاخر؟ ما هذه الابواب وهي من
من خشب الارز تكاد تلمع من ورائها عيون ملكة عربية بين
وصيفاتها؟ وذلك القيشاني البديع والنقوش المدهشة؟ يالها من نعمة
موسيقية عذبة ، ولحن ساحر تردده هذه الالوان ! بل يالها من صورة
رائعة لجمال النفس العربية .

ان هذه الساحة لهي آية من آيات الفن بما فيها من بساطة
وتناسق عجيبيين . هي لا تحوي سوى اربعة جدران بسيطة وبركة
وبعض قناطر وتظهر هذه الدار نقيمة ساكنة لانها من الرخام الناصع ،
هي بسيطة جداً ولكنها تبدو عجيبة فاتنة . وهذا هو سر الفن الراقى
كما عرفه فنانو الاغريق القدماء : « نحن قوم نجب الجمال بشكله
الطبيعي البسيط » .

لنقصد الآن الى الجهة الشمالية من الساحة ، نحو تلك الاقواس
(التنتائية) والاعمدة الرشيقة حيث ينهض وراءها برج عظيم مربع
الشكل ذو باب واسع يظهر من وراء نوافذه المزركشة لون السماء
وذرى جبال زرقاء بعيدة .

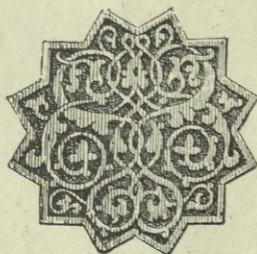
Sala dell' Ambaciadores المعروفة هي قاعة السفراء
حيث تقرر فيها ككريستوف كولمبس المساعدة للقيام برحلته التاريخية .



احدى نوافذ غرفة السفراء

ماذا أقول عنها؟ أتتكلم عن جدرانها التي اكتست بالثقوش والزركشة
الدقيقة العجيبة من فسيفساء ونجوم وازهار وما هنالك من فن عجيب؟
أتحدث عن الخطوط من كوفية وغير كوفية بشكلها الزخرفي بما فيها
من حكم وآيات وشعر رقيق تأخذ بالالباب؟ أم اصف السقف من
خشب الارز ذا الخطوط والرسوم الهندسية الموشح بالعاج والمحلّى بفضه
بالابنوس؟ حقاً اني لا استطيع الكلام عنها بل اترك القلم من يدي
بعد ان تركت الريشة وكلاهما سقطا عاجزين .

ظلت مدة مسجوراً بما ارى وقد نسيت الوقت ، نسيت
غرناطة والعالم ، بل نسيت كل شيء . ، انني اسبح في بحر متسع من
العجائب الاندلسية .





بعض نقوش مدبران الحمراء.

وهممت بالخروج ملتفتاً نحو الجهة المقابلة فاذا بي ارى امامي صورة فاتنة جعلتني اقف مدهوشاً في مكاني واليك وصفها :

بين عمودين من المرمر علتها قنطرة دقيقة الصنع بدت لي تحتها حسناء اندلسية عربية اللون جميلة الوجه على رأسها وشاح ابيض ظهر من جوانبه قليل من شعرها الاسود الشديد اللعان وهي تنظر بعيون فاترة ولكنها فاتكة وقد علت وجهها شيء من كآبة وشحوب زادها فتنة وجمالاً .

انه لمن الصعب ان اصف التأثير الشديد الذي يحدثه منظر هذا الوجه الجميل في جانب هذا الفن الجميل ! . ان حسناي هذه بدت كأنها دمية يونانية اخرجها ازميل «بركستيل»^(١) او ريشة «ده فاسي» فالتقت المنظر . فالقوس المنحني فوقها والعامودان على طرفيه كانت لها اطرافاً ، وما كان حولها من مياه وخضار وتقوش كونت من المنظر صورة رائعة فاتنة .

لاريب ان المهندس تحيل هذه الصبية عندما وضع تصميم

(١) بركستيل : هو من اشهر مثالي اليونان القدماء ، وده فاسي : هو المصور الايطالي صاحب صورة «جوكندا» الشهيرة .

هذه الدار ، لذلك تراءت لي في تلك البرهة كأنها سلطانة عربية او
محظية تنتظر قدوم سيدها العربي . كنت ازاء هذا المشهد كمن هو في
حلم ، ينظر الى ملاك كريم ، وما لبثت فتاتنا ان ابتسمت ثم احتجبت
بين العمد والالوان والنقوش احتجاب الزهرة الجميلة في اكمامها .
غربت الشمس فدوى الجرس ايذاناً بالخروج من هذا النعيم
فعادرتة آسفاً اسف آدم عند فراق جنته .

قصدت الفندق وانا لا اعني على شيء من تأثير ما شاهدت ،
وحينما دخلت الى التزل طلبت من صاحبه ان يهيي لي كل صباح طعام
الغداء لانني قررت الاقامة في الحمراء طول نهاري . فابتسم قائلاً
لست انت باول من طلب ذلك . . .

وما ان رأيت سهام الشمس مرسله حتى اخذت طريقي الى
محجتي الحمراء ، وهناك سرت متابعاً نقوش دار الريحان نحو ساحة
الاسود الى ان انتهيت امام باب صغير ولكنه جميل .
هناك وقفت متردداً خائفاً لاجسر على الدخول رهبة وخشية
من روعة « ساحة الاسود » ولا عجب فان للجمال والفن روعة ومهابة ،
وكنت كلما دنوت منها ازدادت نبضات قلبي وبت في حيرة .
واخيراً راحت نظرائي الى الداخل حيث وقعت على انوار

ساحرة جذبتني اليها بقوة عجيبة ، فسرت اليها طائعاً لا أملك من امر نفسي شيئاً .

ومنذ تلك البرهة بت اعتقد بالسير وفعله ، وان اعترفت بعجزني عن وصف تأثري العميق في تلك البرهة النادرة فلا اكون قد قلت جديداً ، فقد أقر به قبلي من كبار الكتاب ممن عرفوا بالمقدرة والتفوق .

ماذا شعرت في تلك البرهة ؟ لا ادري انما جل ما كان دومة حارة جادت بها عيني على ضريح الفن والجمال ساعة لا ولن انساها ما حيتت ، هي كل الحياة ، في تلك الدقيقة فهمت الحياة ونعمت بالجمال وحظيت بالفن السامي وشممت من طي جدران هذا المكان وزواياه شدا الحب والعز والترف والعظمة البالغة . الحب بغرائبه واسراره ، والهيام بكآبته وسكونه ، والغرام بدلاله ، والعز بروعته وجبروته ، والترف بمبالغاته واسرافه ، والعظمة بسلطانها وثورتها التي ترتفع حلقة الى ان تبلغ السماء تسبيحاً بنعم الله فيتردد صداها في جوانب الحمراء « العزة لله » « ولا غالب الا الله !! ... »

هناك امتزاج روحي بين جمال الحمراء ونفوس المغرمين

والشعراء الذين كل رغباتهم احلام براقية . ان العبقرية العربية ملكت
الخيال ومثلته في الحمراء حقيقة خيالية ، انها حلم ، انها نور وآمال ،
لهذا تجذب الحمراء مع ما هي عليه الآن من خراب ، لا تزال اجمل قصر
في العالم ، لان فيها سحراً ونوراً ، وفي جوها تنتشر رائحة الحب والحياة
والهناء ، غاية الحياة واقصى الفنى والترف والعظمة ، ولذلك قد هوت
عن عالي مجدها وسامي ازدهارها وما بعد الذروة الا السقوط . . .

الارحم الله الشاعر الحساس فوزي معلوف حيث يقول فيها :

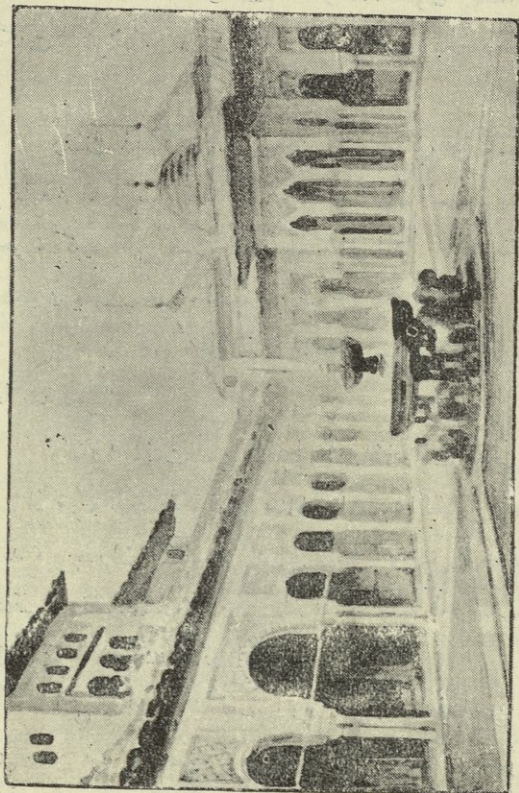
تأله قصر الحمراء لا برحت ترويك منا المدامع الحمر
انت على الشرق عبدة بقيت في مقلة الغرب كلها عبر
كل فخار لديك مدخر صنع الاولى خلدوك واندثروا
ابوابك الزهر من فنونهم خطت عليها الايات والسور
حروف مجد في روقك اعتنقت كأنهن الرماح تشتجر
من فنهم رفهوك في برد بها تنيه السقوف والجدر
عابوك لما عدت محجمة فيك جياذ الاعارب ضمير
كل الحضارات في بدايتها بدو وفي اوج عزها حضر
تورق بين الرماح غرستها وفي ظلال السيوف تردهر

ذلك مجد حضته زمناً واغتاله فوق حضتك القدر
فكنت غرناطة على فمه آخر ما قال وهو يجتضر

وقفت ذاهلاً صامتاً ، وهنالا حاجة لي الى الكلام ، ومن
يجسر عليه ؟ انا في ساحة الاسود ، ساحة الجبال السامي ، ساحة النور
والسحر ، كعبة الفن حيث تصعد بالمرء الى الملائة الاعلى شاكراً لله
ما اودعه في نفوس هولاء القوم من نبوغ وعبقورية بالغة .
برهتان في حياتي لم ار مثلهما ، يوم قرطبة ويوم غرناطة ،
هما خلاصة الحياة .

واخيراً أفقت من ذهولي فماذا رأيت امامي ؟ غابة من
الاعمدة المرصبة الرشيقة ، فوقها حنايا تدلت منها نقوش وتخاريم كأنها
العناقيد ، وجدران اكتست بدقيق النقش وجميل الزخرفة ، اناقة
لا توصف ، رقة لا تدرك ، وفن بالغ اشياء اشبه بالخرافات والاساطير
منها للحقيقة . ولكنها ماثلة امامي . . .

انني لا اعرف ما اسمها ولا اعرف ما فيها من جمال ومن
تناسق ومن نور وترصيع ومن الوان ومن ظلال متموجة ، اقسام
يتألاً على صفحاتها النور فاذا وقع عليها البصر رد حاسراً خاشعاً .



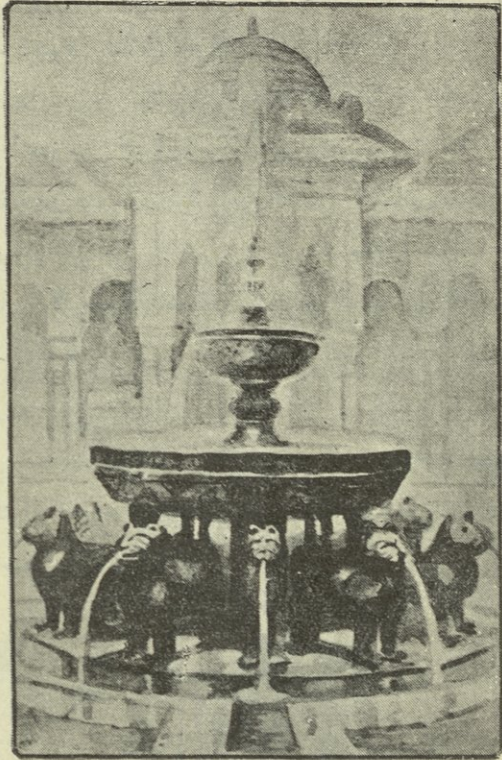
قسم من ساحة الاسود

انني امام منظر مدهش رائع تتحول فيه الاشياء الى اطراف ،
الى احلام تتطوف بك في عالم النور والجمال .

واغرب من ذلك ان كل هذه المعجزات قد انحصرت في ساحة
لا يزيد طولها عن خمسة عشر متراً في عرض عشرة امتار . ساحة
مكشوفة تبدو فوقها زرقة السماء والشمس تسكب سائلها الذهبي ،
والقمر يرسله ليلين على ارضها ، او تشع في حافات اهلواء الجن . وفي
وسطها بركة مشمسة الشكل تقذف في الفضاء عموداً من ماء تسقط
حياته المتلازمة في حوض متسع يحمله اثنا عشر اسداً تحنت من الرخام
بفن زخرفي ساذج .

انها تقذف المياه من افواها في اقنية رخامية مسطحة جداً
تتصل بالنوافذ الاربع الموجودة في الغرف المقابلة ، ففي اية غرفة جلست
ظهر لك منظر المياه المتدفقة .



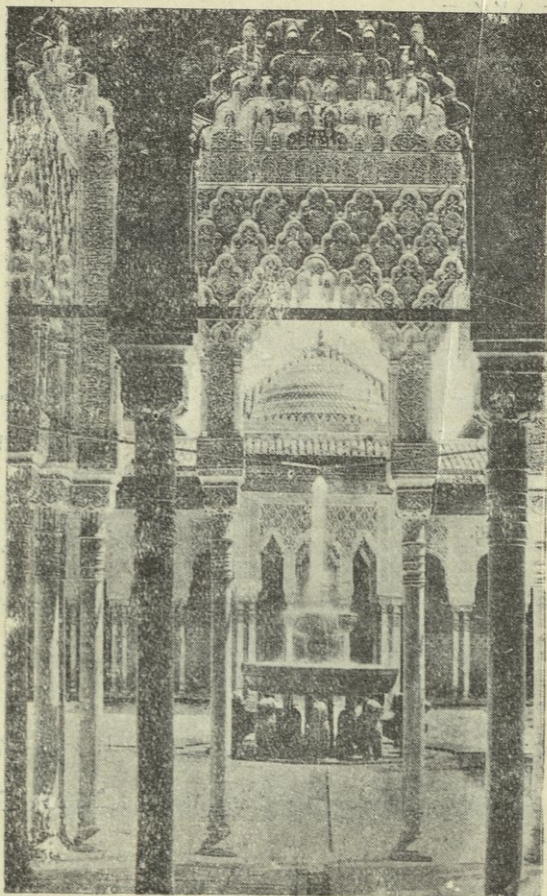


بركة الاسود - الحبراء

ابيات منقوشة على اطراف بركة الاسود :
ومنحوتة من لؤلؤ شف نورها تحلى بمرفض الجمان النواحيا
الم تر ان الماء تجري بصفحها ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه وغيض ذاك الدمع اذ خاف واشيا

ساحة الاسود هذه ، هي نسبة للبركة المحمولة على الاسود ،
وقد احيطت هذه الساحة برواق تعاوه اجمل الاقواس على اعمدة من
ناصر المرمر ما كان منها مشتي وثلاثاً ورباعاً باشكال متنوعة نظير
كأنها غابة طبيعية . قد برز قسم من الرواق في جهتين متقابلتين من
الساحة . يحمل كل منها قبة زمردية وعقمية من القيشاني
المصقول مرسله في الفضاء بريقاً يكاد يخطف الابصار ، فكأنها منارة
قائمة هناك لتهدى الناس الى محجة الفن والنور .

ظلمت ارنو الى هذه القناطر وما عليها من نقوش من مخرم
يشبه الازهار ، الى نجوم متدلية حول هذه الاقواس او متدلية من
السقوف وقد توشحت باجمل النقش والترصيع وازهى الالوان ، ثم تتدلى
منها (المقرنص) Stalactites فيشعر المرء امام هذا المشهد كأنه في
كهف طبيعي عجيب لتأوج النور والظل ، ولما ابرزته النقوش ما بين



ساحة الاسود

مشجرة او هندسية . ثم ترى هناك الالوان المتجانسة ، كل هذه تريد في جمالها ولا سيما ما استقر بينهما من لطيف الخطوط العربية متضمنة بليغ الحكم ورقيق الشعر .

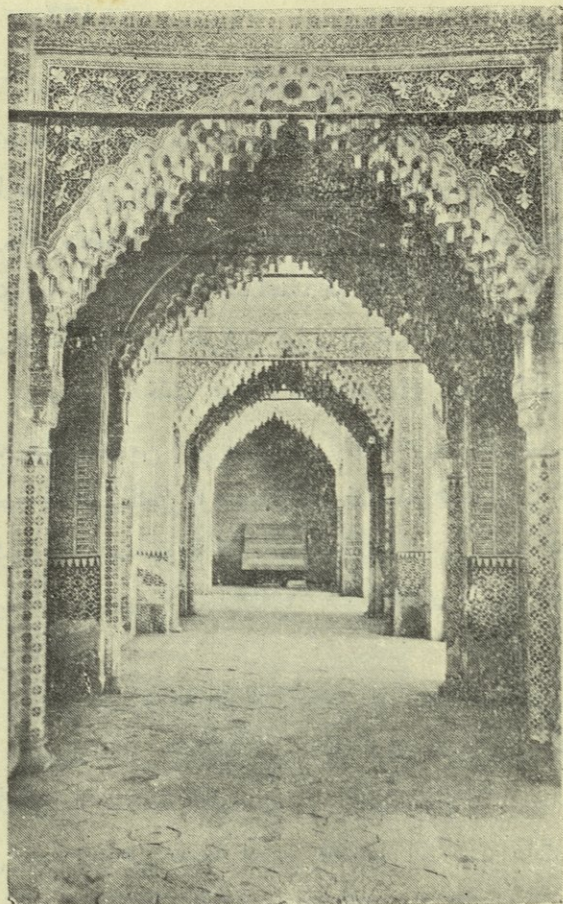
وكيف ما التفت المرء لا يسمع سوى خرير مياه انسابت بين اعمدة رخامية تشبه بكثرتها ووضعها غابة من النخيل ، فكنت هناك اشعر كأنني اسير في وسط غابة طبيعية بين صوت مياه ومنظر اشجار ورائحة ازهار وترديد طير وفاكهة متدلية وعبير زهر وظل ظليل . انما هذه غابة من المرمر هذبها الفن فردها جنة غناء ، تذهل العقول .

والمدهش ان الانسان كيفما نظر في هذه الجنة رأى منظراً جديداً وظهرت له آيات رائعة لم يرها من قبل ، وهناك ابعاد وظلال وانوار جذابة لم يكن له بها عهد ، وقد برزت امامه اعمدة واختبأت اخرى وبانت جدران تحلت برسوم بالغة الفن يتعاقب عليها وقع النور باختلاف الوقت فتبدو كل حين في ثوب جديد ، انها في تطور دائم ، ففجائتها لا تحد وجمالها لا يمل ، وفنها لا ينضب . كلما زادها المرء نظراً ازداد بها شغفاً ورأى من آياتها عجايبا .

لكن لو تأملناها يوم كانت مسدولة على ابوابها الستور
الحريية وجدرانها محلاة بالالوان الوهاجة واعمدتها مغشاة بالذهب
وسقوفها مزينة بمختلف الالوان والتحف، ووكنا قد ملئت بأية الذهب
والعطر والبخور، ومن تلك النوافر تنبثق المياض المضمخة بالطيوب
متدفقة من افواه اسودها الاثني عشر، ولو رأيتها والاميرات بين
جواربهن يتبخترن بدلال بين اعمدة كقوامهن الالهيف؟!

قضيت ساعات مرت كالثواني بين تلك الآثار والتحف التي
كنت احسبها خيالاً . فكلم لمست جدرانها ومررت بيدي على اعمدتها
مراراً لا يتقن ما اذا كان الذي اراه امامي حقيقة او حلاً خادعاً . بل
كنت ابحت لاعرف من اية مادة نورانية جبت هذه الآثار حتى جاءت
بهذا السحر! . . . وذهبت مرات كثيرة في هذه الاروقة وتلك المقاصير
من خلال الاعمدة ، وفي كل مرة كنت ارى جديداً . انني لم ارقط
في حياتي ما رأيت من غرائب الحمراء وما شاهدته من سحر وجمال
فاتن ، انني في نعيم ، في جنة تجري من تحتها الانهار .

ضاق وقتي فسرت على رغبتي متجهاً نحو غرفة العدل ، انها
ثلاث غرف متصلة ببعضها ، حملت سقوفها وجدرانها تحفاً ملئت
بالعجائب .



غرف دار العدل

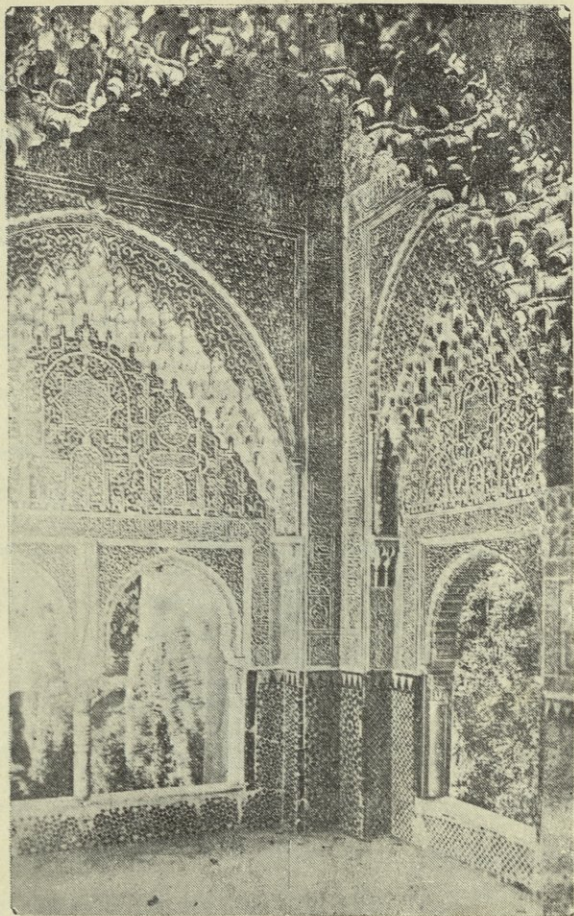
خير لي ان اختصر فاقول هي عجيبة كغيرها من الغرف ،
ولقد شاهدت في اعلى جدرانها صوراً (افريسك) مناظر صيد وفي
الوسط صورة تمثل مجلس السلطان ابي عبد الله بين وزرائه وقد جلسوا
على وسائل منخفضة مزركشة يرتدون « برانس » بيضاء او ملونة قريبة
من زي اهل المغرب ، وفي هذه الصور فن ساذج ولكنها ذات اهمية
كبرى في تاريخ التصوير العربي ويقولون ان هذه الصور على جلد .

واخيراً دخلت غرفة (Dos Hermanos) المعروفة
بالاختين وهي تعد من اجمل غرف الحمراء واغناها لها سقف ذهبته
في الفضاء فاذهبت العقل بما فيها من تجاوير تبلغ خمسة الاف تجويف
بتراكيب وخطوط متنوعة يحار فيها الفكر ، كلها على اسس هندسية
حسابية تم عن علم واسع واطلاع كبير يرافقها الذوق والدقة
وحسن الانتقاء .

هي مقصورة مربعة الشكل ليست كبيرة ولكنها تحفة
نادرة ، اخذت اتأمل في سقفها فاذا انا في كهف طبيعي ذي تجاوير
وظلال ونبوءة متدللة كالعناقيد ، بل كأنها دموع اشتد بصاحبها
الاسى فجمدت ، هي بديعة الصنع محكمة التركيب ذات انواع
متباينة توحي بمجموعها منظراً غريباً فيه كثير من الاسرار . وهناك

احكام في الظل والنور وما تركته في ارجاء المكان من انعكاسات،
ثم هنالك الالوان والخطوط برزت فيها موسيقى تلك النقوش الفريدة
كانها التنتناء بل ارق منها دقة وفناً . هنالك الفسيفساء بالوانها الزاهية
فاذا كل ما في المكان يرقص و كل ما فيه انعام والوان وتناسق
تفيض بالفن والجمال .





غرفة الاختين

وابدع ما في ذلك ان الانسان مهما كان ثثاراً قليل الشعور
فانه يلزم الصمت في هذا الحرم ، فالمثل الافرنسي يقول :
« ان للفن العالي سلطاناً وروعة » .

وقد لاحظت انه رغم احتشاد الجماهير من الاجانب في تلك
المقاصير لا تكاد تسمع صوتاً ولا حركة كأن المكان يظهر خلواً من
الناس . واني لا ازال اذكر حينما كنت ازور هذه الغرف ، شاهدت
رجلين لها سحنة المانية جالسا يتأملان شاخصين في هذه الغرفة وبايديهما
كتب مغلقة ، تركتها ورحت اطوف في بقية الحجرات ، ثم عدت للغرفة
الاولى بعد ان تركتها ما يقارب الساعتين ، فاذا بالرجلين لا يزالا في
مكانهما ببصار شاخصة ولم يغيرا وضعيتهما الاولى فيخيل الي انهما
صنمان من الحجر وقد نسيا الكتب التي في ايديهما فسقطت على الارض .
اني اسفت جداً لاني نسيت ان آخذ لها رسماً بتلك الحالة فلربما
كنت كفيت نفسي مائة الوصف ومثلت للقاريء تأثير الفن الاندلسي
على الناس ذلك التأثير الذي لا يمكن لاحد ان يصفه .

ان المهابة التي تطوف بهذه البقعة تحمل الناس على الخشوع
الزائد ، وهذا شي ، لم اره الا في الحمراء وقرطبة والزهراء مما أكد
لي ان فنها انتهى الى ذروة الكمال ، واتخذ له من السحر قوة ومن

الجمال سلطاناً .

ان امامنا الآن مسألة فنية حربية بالانتباه وهي انه رغم ما في الحمراء من نقوش دقيقة وزخارف بالغة فان ذلك لا ينقص شيئاً من متانة فنها وروعيتها ، فاذا نظرنا الى مجموعها ملكتنا المهابة والعظمة ، واذا تأملنا في دقائقها بهرتنا واذهلتنا بعدوبة موسيقاها فهي مهيبه في هيكلها جذابة في دقتها فقد جمعت بين الضدين وهذا منتهى عجائب الفن . اما مسألة الالوان وتركيبتها ومهارة تمازجها واندغامها وما يتولد منها من تأثير وتوجع فما يدل على ان هؤلاء الفنانين قد نفذوا بفنهم الى صميم الطبيعة درساً وفهماً حتى ابرزوا منها فناً زخرفياً خاصاً بهم وهذا برهان آخر على ما تقدم .

وخلاصة القول ان من يروم مشاهدة شيء من اساطير الف ليلة وليلة فليزر الحمراء ليراها هناك حقيقة ماثلة ، بل من يود زيارة الفردوس فعليه بالحمراء ، ولا مبالغة في ذلك لان اولئك المسلمين قرأوا وصف الجنة في القرآن وبنوا قصر الحمراء على مثالها تماماً وكالا فمن زارها فكأنه زار الجنة التي تجري من تحتها الانهار ، ومن يستطيع وصف الجنة دار الخلد التي وعد الله بها عباده الصالحين ؟
انني لست باول من فتن بها ولكن كل من زار الاندلس

وشاهد هذه الروائع الخالده اخذ ثم قال : « آمنت بفن الحمراء
وسجره » ولذلك لا يرى هنالك سوى مذهول يرنو بعينيه ويهفو بقلبه
الى تلك المعجزات ، حتى كأنه في صلاة يهبط عليه الوحي من لدن
النبوغ العربي .

وما كدت اتوسط هذه القاعة الساحرة حتى خيل الي حسان
جلسن الي بعضهن يضربن على آلات الطرب يرددن اللف الشعر بارق
الاحان وبعضهن ينقلن الخطى على تلك النغمات ، وكانت تهف
علي رائحة عطرية مضمخة بشذى الحب واكسير الهيام . لا ادري
ما اوحى الي بيثل هذا؟! . لعلها نوافذ المقصورة ذات القناطر والاعمدة
اللطيفة حيث ظهرت وراءها اشجار حديقة Daraxa بازهارها وبركها
التي تقذف في الفضاء مياها ضاحكة متدله! عدت اتأمل في جوانب
القاعة تاركاً القيشاني والفسيفساء والنقش والترصيع وما هناك من
المدهشات واخذت اتلو ما انبت فيها من رقيق الشعر الاندلسي الراقبي
الذي اتى مماثلاً لغيرها المندسي بعدوبته وبعد خياله ، ولا غرو فهو يمثل
النفس العربية في ذلك العهد الزاهر ، وبعض هذا الشعر لابن زمرك
كاتب محمد الخامس من بني نصر وهذا بعض ما استطعت حله من

بين انياب التهشم وضربات الحديد .

انا الروض قد اصبحت بالحسن حاليا تأمل جمالي تستفد شرح حاليا
اباهي من المولى الامام محمد باكرم من يأتي ومن كان ماضيا
ولله مبناه الجميل فانه يفوق على حكم السعود المبانيا
فكم فيه للابصار من متزه (؟) (؟) نفس الحليم الامانيا
به القبة الغراء قل نظيرها ترى الحسن فيها مستكناً وباديا
تد لها الجوزاء كف مصافح ويدنو لها بدر السماء متاجيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت بها ولم تك في افق السماء جواريا
بها المرمر المجاود قد شف نوره فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
فلم تر قصراً منه انعم نضرة واعطر ارجاء واحلى مجانيا
فان ملأت كف النسيم مع الضحى دراهم نور (؟) عنها مكافيا
فيملاً حجر الروض حول غصونها دنانير شمس تترك الروض حاليا

كذلك :

فامنت حتى الغصن من نفحة الصبا وارهبته حتى النجم في كبد الصبا
فان رعشت زهر النجوم فخيفة وان مال غصن البان شكرك يمما

وهناك أيضاً :

تبارك من اعطى الامام محمداً مغاني زانت بالجمال المغانيا
والافهذا الروض فيه بدائع ابي الله ان يلقي لها الحق ثانيا

وخنساء الاندلس ليست بهذه الابيات الرقيقة تعرض امام
اعيننا صورة ملونة باجمال تعبير وادق وصف ؟

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث العميم
تولنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظاء زلالا الذ من المدامة للنديم
تروع حواه حالية العذارى قتلسم جانب العقد التنظيم
يصد الشمس انى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم

وهناك بعض كلمات سطرت في حواشي الغرف منها :
الملك الداثم والعز القائم . الحمد لله على نعمه . ولا غالب الا الله .
عز لمولانا ابي عبد الله . وما بكم من نعمة فمن الله . وغير ذلك
كثير يستحيل اثباته كله . كنت اجد صعوبة كبيرة في قراءته لان
اكثره بات متهدماً او مشوهاً بضربات العصي والحديد . وهذا برهان

على تقدير الفن واحترامه هناك بينما كنت اشاهد في ايطاليا اثاراً فنية قيمة معروضة في الشارع والناس على اختلاف درجاتهم واعمارهم يرون امامها بكل احترام.

مع ذلك يجب ان لا ننسى قط ان هذا القصر التاريخي ترك مئة وخمسين سنة مهملًا ونهبًا للجميع فجعلته الحكومة اولاً سجناً للمحكومين بالاشغال الشاقة ثم ترك خراباً يومه الاوص والمتمردون ثم سكنه الفقراء ممن لا مأوى لهم يصنعون فيه طعامهم ويغسلون ثيابهم وامتعتهم تاركين الاقدار والاوساخ على تلك الدرر الثمينة^(١) وكم اقتلعوا من جدرانها قطع قيشاني وجعلوا من ابوابه الجميلة وقوداً!

ان الحمراء مريض فكر الاسبان اخيراً بالاعتناء به لمنفعتهم لانهم وجدوه لبلادهم ثروة عظيمة بل ينبوعاً من الذهب لا ينضب . لقد اثبتت الارقام ان عدد السياح الذين يقصدون اسبانيا سنوياً لمشاهدة الاثار العربية يزيد عن الثلاثائة الف فتأمل ! . . .
اجل فكروا بالاعتناء بالحمراء ذاك المريض الذي يعيش منذ

(١) كوستاف لبون كتابه مدينة العرب

القرن الرابع عشر وقد تحمل وصبر على فظائع شارلكان وامثاله
وعنعات المتعصبين ونهب السلايين من عام ١٦٠٠ الى ١٨٥٠ .

ان التاريخ لا يعرف قصراً اسمي اليه واحتقر كقصر الحمراء
وانا نعجب كيف بقي لنا من آثاره لليوم شيء ؟!

علينا ان نعلم انه لولا نداء واحتجاج ابناء الفن والادباء

امثال الكاتب الاميركي النبيل (واشنطن ارفنغ) Washington
Irving الذي وقف حياته وماله لانقاذ هذا الاثر العظيم خدمة للفن
والحق وقد كتب عنه الشيء الكثير وخصص مجلداً عن الحمراء عام
١٨٢٩ . وقام باصلاح عظيم في الحمراء حيث يرى الزائر مكاناً باسمه
اعترافاً بفضله وجهوده . ثم الكاتب الفرنسي (شاتو بريان) و
(تيوفيل غوتيه) و (كلود فارير) و (الدكتور غستاف لبون)
والفنان الشهير (رينول) الذي بلغ من شغفه بهذا القصر ان ترك فرنسا
وطنه وسكن هناك يستوحي جمال الفن العربي الساحر وهناك
كثيرون غيرهم من الادباء والفنانين . اي نعم لولاهم لظل هولاء
الناس يعملون على تخريبه ولزال كل اثر من ذلك التراث العربي الثمين
ومن يجب ان يعرف مكانة المدينة العربية وعظمتها فليزر الاندلس
حيث يشاهدها عظمة باهرة .

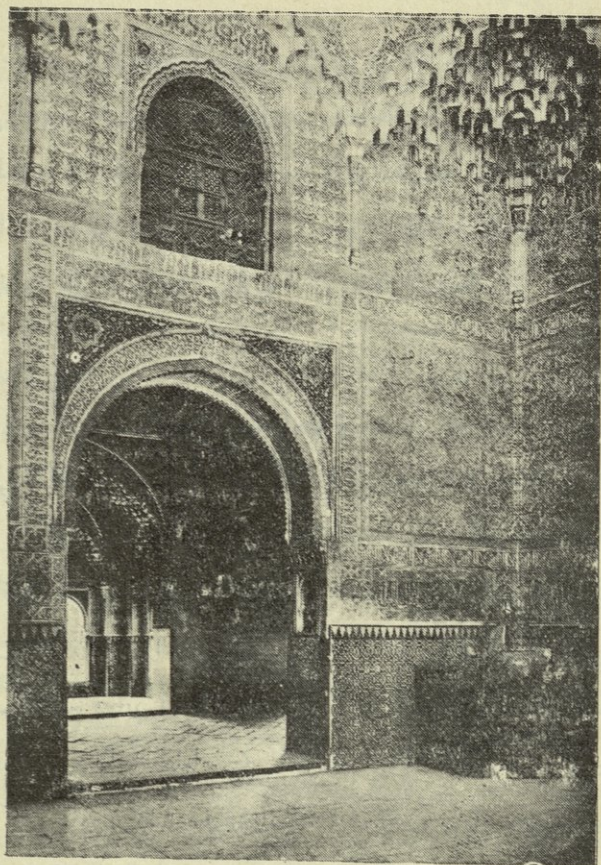
هذا شيء يسير عن فظائع الاندلس الفنية يتألم لها كل من
يجب الجمال ويقدر النبوغ ويمتدح الحق والتاريخ، لان الحق والجمال
والنبوغ لها حقوقها عند العاقل الحكيم وهي عنده فوق اوساخ
المعتقدات وسخافات التقاليد .

لنترك الان ظلمات القرون الوسطى والتذكارات المولمة
ولنتمم انشائه هذه القصيدة الراقية التي نظمت عقدها نفوس حساسة
ونقشت اياتها على هذه البرك المرمرية حيث يرفرف الحمام الابيض
عليها وعلى اغصان اشجار حديقة (داركسا) النضرة حيث أنعم قريباً
تحت افياء اشجارها الظليلة ارنوا الى الحمراء منشداً في محاسنها مع
الشاعر الاندلسي قصيدته الرائعة :

وكانه من درة شفافة	تعشى العيون بشدة اللعنان
لا يرتقي الراقي الى شرفاته	الا بمعراج من اللحظان
عرج بارض الناصرية كي ترى	شرف المكان وقدره الامكان
في جنة غناء فردوسية	محفوفة بالروح والريحان
وتوقدت بالجمر من نارنجها	فكانها خلقت من النيران
ان فاخر الاترج قال له اذ دجر	حتى تجوز طبائع الايمان
لي نفحة المحبوب حين يشمني	طيباً ولون الصب حين يراني

كم شاخص فيه يطيل تعجباً
قس الطيور الخاشعات بلاغة
من دوحة نبتت من العقيان
وفصاحة من منطق وبيان
فاذا اتيج لها الكلام تكلمت
بجزير ماء دائم المملان
وكان صانعها استبد بصنعها
فخر الجماد بها على الحيوان
فساؤه في سمكها علوية
وقبابه فلكية البنيان

ومن ثم خرجت متمماً جولتي قاصداً نحو غرفة بني سراج
وهي لا تقل عن غيرها جمالا وعظمة بما فيها من نقوش مدهشة . فلما
نظرت الى بركتها التي يسيل منها الماء ببطء كأنها عين دامعة
تذكرت حالا تلك المأساة الفظيعة التي مثلها بين جدرانها ابو عبد الله
حيث قتل بطعنات الخناجر اشرف بني سراج وذلك يوم دعاهم الى
وليمة فلتاخ دمائهم القيشاني الوراق . ان ابا عبد الله اميرنا الفتي لم يكن
كما نتصوره لطيفاً حلماً . بل كان رغم جماله كثير الغيرة والغرور ،
انما كثرة غروره كملت مفرقه بالشقاء ، فكانت نهايته عبرة ، وعبرته
ذهبت مثلاً في العالمين .

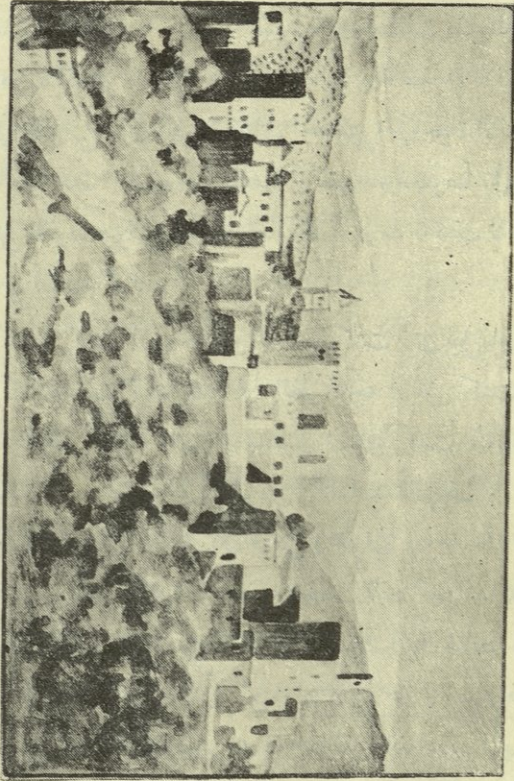


مقصورة آل سراج

انه لحديث شجي مؤلم ، انتزعت نفسي منه ملتفتاً نحو
الساحة مخترقاً بنظراتي غرفة الاختين فانتهيت الى نوافذها الجميلة التي
تشبه عيون حسناء اندلسية ، وقد بدت من خلال جفونها الفاتنة
حديقة (داراكسا) واشجارها الباسقة المحيطة بالقصر ، وحالا قصدت
اليها ماراً بساحة الاسود فالبركة ، ولكن الجرس الان يدوي فالى الغد .
انني في هذه المرة سلكت طريقاً آخر لنامية Generalif
او (جنة العريف) وكانت تتراصف تحت نظري نماذج من مختلف
الالوان على الجبال المقابلة . والشمس في تلك البرهة تودع النهار
تاركة على الكائنات الواناً نارية تزيد شدة لون السماء الزمردي ،
اما السهول فكانت ملامى بمجموعة من الالوان لا تصل اليها ريشة اعظم
فنان وقد لمع في وسط السهول نهر (شنيل) كانه نصل عربي قاطع .
بلغت الوادي فنظرت نهر (الدر) Darro الذي كان يدعى في زمن
العرب نهر الدر او الذهب لما كان يغدقه على الاراضي من الخير
والنعم . طبعاً لانه كان موزعاً بشكل فني . ولكنني اضطرت
للهرب من قربه للرائحة الكريهة المنبعثة منه لانه اصبح اليوم محلاً
للاقدار وقد بدت لي فوقه بقايا جسور عربية ضخمة كانت متصلة بالقلعة .

رفعت نظري نحو الهضبة الخضراء حيث برز مجموع قلعة
الحمراء الجبارة ، هذا البلد الساحر بلد اللؤلؤ ، بلد الفن هناك
ساحصر غداً واني ساكون بلا ريب اسيراً طائعاً لجلها الفاتن .
الحمراء هي غرناطة ، بل الاندلس هي الحمراء ، هنالك
سابقى متعبداً ولن اغادرها الا عند الرحيل . . . وباليته لم يكن .
اخذت طريقى نحو الفندق ولكن جاراقى الاندلسيات فيه لم يكن
لينسينتي جمال الحمراء الذي ملك لى . فلا عذب حديثهن على المائدة
ولا صدى قهقهتهن في الصالون حتى ولا ارتفاع انشادهن الجذاب ،
وضربهن على اوتار قيثارة وقاب او نقر الكستنائيات الحادة ليخفف
من لهيب غرامي لساحة الاسود .





منظر قلعة السمراء الخارجي

ان الزائر لا يرى الاثار العربية فقط في ساحات الحمراء .
وخلال اعمدة قرطبة وقاعات قصر اشبيلية ومنعطفات طليطلة . كلا
انها اكثر من ذلك هو يلمسها في كل اسبانيا وخاصة في الاندلس .
يشاهدها في الشوارع ، في البيوت ، في الحدائق ، في حياة الاندلسيين
الخاصة والعامية بين الحان موسيقاهم ولغتهم وخصوصاً في وجوه
نسائهم وعلى جفون عيونهن العربية الفاتكة . وبعد كيف لا افكر
بهم وانى لي ان انساهم ؟ .

عندما كنت ارى حسناء اندلسية كنت ارى ايلي اوتحدث
الى اختها كنت اسمع نغمة هند او انظر لوجه رجل كنت ابصر
قيساً وحينما يلاطفني امروء منهم او يدعوني لضيافة كنت اشعر باخلاق
عربية ومكارم قحطانية سالمة لم تشوه ولم تنالها يد التزييف .
يا لله ! انني في بلادي بين قومي واخواني . . .

قضيت ليلة احلامها اندلسية وايقظت الفجر من سباته ميمماً
نحو من اشغلت قلبي ومنعت عني الكرى . سرت اليها متأبطاً ريشتي
والواني ولكن لم اجروء على تصوير شي . ان الاعتراف بالقصور فيه كل
العدر ، ان يدي كانت ترتجف من روعة هذا الفن . ان اعظم فنان يرى
ريشته قاصرة امام تلك الاثار السماوية . ورب قائل يقول : ياله من

مبالغ متهوس باثار امته . ودفعاً للريب اليكم ما قاله احد كبار فناني
الفرنسيس^(١) عندما زارها :

« حينما نظرت الى الحمراء ، هذه المعجزة وهذا الحلم بل
هذا ... حقاً لا شيء يضارع جمالها ، ولا يفعل كسحرها ولا يسكر
كخمرتها . لقد قطعنا مسافات كثيرة من الارض ومررنا ببلاد جميلة
لنأتي الى غرناطة ، انما كل ما شاهدناه من جمال وما تحملناه من مشاق
زال عندما وقفنا مأخوذين امام قنن الحمراء المغوية . آه باسم الآب
والابن وروح القدس ! .. لله درك يا محمد ! انت العظيم الفرد ،
الواحد . اما انت اوحيت لاتباعك هذا الفن الساحر ! واني
اجهر باننا نحن فناني اليوم نعد برابرة وحوشاً او بهائم ممسوخة اذا
قابلنا فننا بفن العرب واثارهم الخالدة ولا سيما اذا انعمنا النظر بانصاف
في الفرق بين فن قصر شارل كان الاسباني وفن قصر الحمراء
العربي ... »

وهناك كلود فارير الكاتب الفرنسي يقول : « انني اعرف
كثيراً من الناس لم ترقهم نابولي واثينا وروما ولكن لا اعرف احداً

(١) المصور (هنري رينبول) صاحب صورة (سالومة) الشهيرة » عن

لم تجذبه غرناطة وغرناطة هي الحمراء ذات السحر والفتنة »
وقفت مجرماً فلمست الفرق العظيم بين حقيقتها والصور التي
كنت اراها من قبل التشرف بعظمة هذا القصر وايقنت
انها فنون لا تصل اليها عدسة الفتغرافي ولا ريشة المصور القدير . اني
شاهدت اثناء رحلتي اثاراً كثيرة وزرت قصوراً للملوك ومتاحف اثرية
ومعابد مختلفة تعد لاكي فريدة في جيد الدهر فلم اشعر ازاءها باشعرت
وانا ماثل امام فتن الحمراء لذلك لا اخشى ان اقول : لا آثار روما
ولا معابد اتيانا ولا قصور مدريد ولا عجائب باريس تفعل في النفس
فعل فتون الحمراء .

بلغت القصر وساحته واخذت اطوف في حدائقها ماراً بين
شجرها وزهرها وارجها ذي اللون الناري وطوراً امر باحواض جميلة
الهندسة حيث المياه العذبة تقطع هذا السكون بصوت ضحكها
المتكسر في الاحواض فتقتز عن بياض مرمرها الناصع . مناظر بديعة
جعلتني اتساءل : ترى كم جلست بين تلك الاشجار من اميرات حسان
جلسن الى احواضها وقطفن من ازهارها بل كم شهد هذا المكان
من حب وغيرة وموثرات ، وسجل من وقفات عشق ومناجاة

غراميه في ليال ساحية مقمرة ؟
صورة غريبة يوجها اليك هذا المكان الغريب فتشدد
مع الشاعر :

رعى الله بالخمراء عيشاً قطعته ذهبته به للانس والليل قد ذهب
تري الارض منها فضة فاذا اكتست

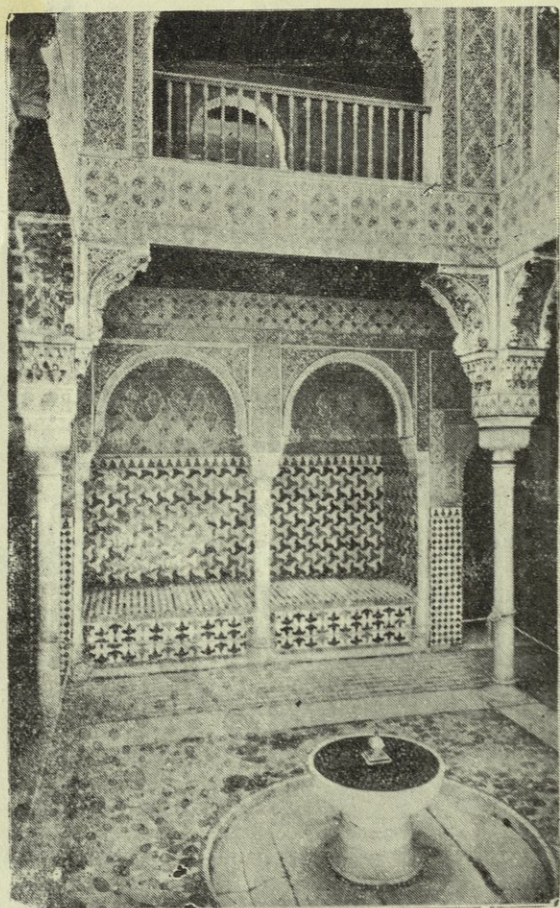
بشمس الضحى صارت سيكتها ذهب

تابعت طريقي نحو Tocador ومقصورة الملكة ولم ابعدها
عنها كثيراً حتى عدت اشاهد فظائع جديدة وهناك بقية ابراج دلتني
الكتابات المنقوشة عليها ان بعض هذه الابراج هدمتها قنابل الفرنسيين
عام ١٨١٢ واهمها برج Siesto Suelos من حيث خرج ابو عبد الله
وبعد زفرات عميقة صعدهتها هبطت الى الحمام حيث قرأت
في احواضها المرصعة بالفسيفساء والالوان الزاهية ، صفحات رائعة عن
الف ليلة وليلة ، هنالك شاهدت الربيع ناضراً حياً . ثم هناك البرك
التي سال ماوتها منشداً قصيدة شجية عن قوم مضوا بعد ان خلفوا اثاراً
نادرة يجار بها الفكر ويعتربها الزمان . بلى هنا تمثل مجلاء تاريخ
العرب اللامع ومدنيتهم الزاهرة في الاندلس بفضل فنههم الحقيقي الذي
يضي نوره ولو كره الجاهلون .

واخيراً دخلت ردهة (الاستراحة) Sala de reposo هي حجرة صغيرة مربعة الشكل لا يزيد طولها عن خمسة أمتار فيها ايوانان متقابلان يبلغ طول الايوان نحو مترين وهو ذو قنطرتين على عمود واحد وجدرانها كلها من الفسيفساء الباهرة . هنا كان الملك والملكة يأويان لتناول المرطبات وسماع شيء من الموسيقى بعد الحمام وفي وسط القاعة فوارة بسيطة ولكنها كالنور من العين . وقد بني في اعلى الحجرة شرفة اعدت للمغنين والعازين وكانوا عمياناً كيلا يروا نساء الامير ، والامير العربي طبعاً شديد الغيرة على من احب حتى من الكأس التي تشرب بها .

انما اذا قلت ان هذه الحجرة لا تزيد عن العشرين متراً فيجب ان لا نستخف بها ، ومن الخطأ تسميتها غرفة لانها جوهرة ثمينة نادرة بل هي درة من القلادة الرائعة التي يتحلى بها جيد الحمراء .





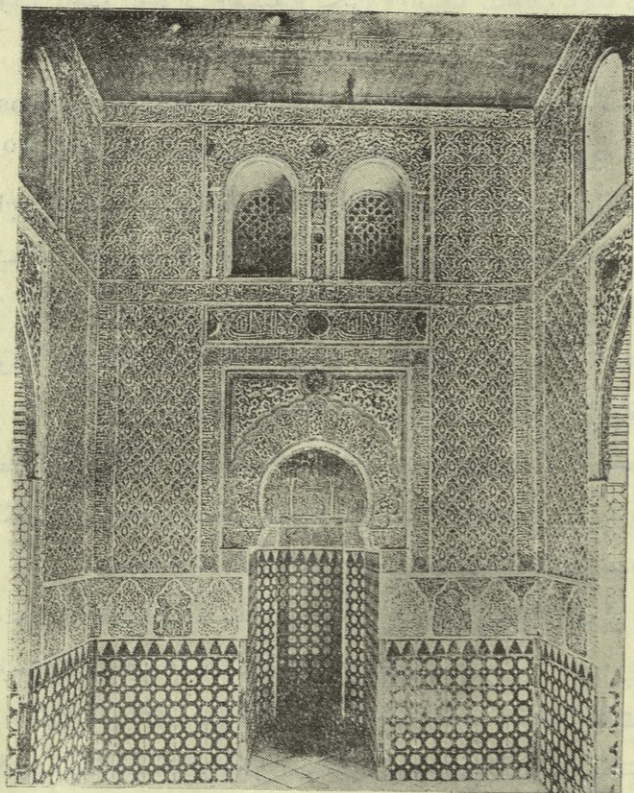
ردمة الاستراحة

(٢٠)

إذا نظر المرء الى هذه المقصورة ارتفع حالاً الى الملاء الاعلى وانسلخ عن كل مادة ، هو لا يرى غرفة ولا حجرة ولا اي شيء آخر من مسميات هذا العالم بل يرى اطيافاً نورانية تحف به وتنشد اغنية علوية او حاشا جمال هذا الفن . فاذا المرء يشعر انه مع اناس آخرين في بيئة جديدة بين احلام وآمال بين لطف واناقة ينشد شعراً وينشق غراماً .

هذا ما توحيه اليك ما يسمونها غرفة الاستراحة بما فيها من فسيفساء هي الربيع بزهرة وريحانه والقيشاني بجاله ورقته ، هذا والمكان قد خلا من اهله ومن امرائه وحسانه ومن الموسيقى والطيوب ، الا من دموع فوارته النادرة ، فكيف لو وجدته في ثوب عزه ؟ اذن لرأيت ثم نعيماً وملكاً كبيراً . وحينما كنت انتقل بين هذه الحجرات كنت ارى كثيراً من الناس مأخوذين شاخصة ابصارهم الى هذا الفن فاشعر بلذة معنوية غريبة واكبر في عمي نفسي .

اتخذت طريقي نحو الابراج ماراً بالحدائق والرياض فداردمشق التي تشبه قصور دمشق انما هذه تفوقها بدرجات اناقة وغنى ثم مررت بالمسجد الصغير ولما وقفت امام محرابه الساحر الذي لا يحيط به وصف تضرعت اليه عز وجل ان يوتيبي من لدنه قوة بيان استطيع بها



محراب جامع الممراء

وصف هذه المعجزات العربية ولكن . . .
وتابعت سيدي ماراً ببرج الماء ثم (القنديل) Candil و
Picos و (بيت القاضي) Cadi فالاولاد ، حتى بلغت برج (الاسيرة)
Coutivo وهذا له نافذتان حويتا من الدقة والسحر ما لا تحويه عيون
اجمل حسناء ، ولا مبالغة ، لان كل زائر هناك يصبح اسيراً مصفداً
بسلاسل متينة من فن خلاب .

من مميزات الفن العربي الشعر والرقعة والموسيقى في الخطوط
وهو يجمع البساطة مع الفن والعظمة مع اللطف .
ومن مميزاته ايضاً القطرة ذات الشكل النعلي التي يتفرع
عنها انواع كثيرة وقد تفنن العرب بالاحجار القنطرية كثيراً فاحدثوا
المضلع والمتداخل والمسنن والمجزع المختلف الالوان .
وقد تفردوا ايضاً بالقبب فجعلوها مرتفعة على جدران
متعددة الاضلاع لذلك تبدو اكثر جمالا وادق مبني سيما النقوش التي
يزخرفون بها القبة فتكسبها كثيراً من الظرف .

أما المآذن فهي عند العرب موضوع متسع للتفنن فكانت في
البدء مربعة الشكل ولكن بعد القرن العاشر للميلاد اخذوا يتفننون
بها وحدثوا فيها اشكالا متنوعة تحوي كثيراً من اللطف والتناسق

ذات قدود وقامات هيفاء، وتركوا فيها شرفات جميلة الشكل غنية في النقوش .

وارى ان العرب في فرع الزخرفة بلغوا شأواً بعيداً وابتكروا كثيراً مما دل عن ميل قوي واستعداد غريب في هذه الناحية . فانهم ترجموا جمالات الطبيعة وكيفوها حسب رغباتهم واهمها (المقرنص) الذي اخذوه عن الكهوف الطبيعية كذلك الازهار فانهم تصرفوا بها بفن وابتكار نادر مما يدلنا على انهم لم يكونوا مقلدين بل هم فنانون بالفطرة كما ان المنطق رائدهم في بحوثهم وتجاربهم . ان في النقش العربي حساباً عميقاً ونظاماً يسيره خيال سام يختلف عن الخيال الغربي . فالنسق العربي ينم عن روح شفاقة شعرية ذات روعة تتراعى للناظر امام محراب جامع قرطبه وساحة الاسود وقصر اشبيلية وما هنالك من عجائب اندلسية .

واقرب الفنون الغربية للفن العربي هو الطراز (القوطي) الذي فيه كثير من اللطف والتناسق انما هذا لما فيه من الظلمة والجمود يضع في النفس كثيراً من الحزن والكآبة ويجعل الانسان ان لا يفكر بسوى الموت بينما الطراز العربي بانواره والوانه المشعة وموسيقاه يبعث في نفس الانسان البهجة التي تحبب اليه الحياة والامل . اما النسق الروماني

فانه يدل بفخامته وتقاطيعه وخطوطه الجافة عن عظمة مادية وعن قوة حربية تصور للمرء الفتح والاكتماس ، فهو نسق جبار اما موسيقاه فصليل السيوف وانين الجرحى - هو فن عملي ، وفي هذا الحال ارى ان النسق اليوناني احسنها فهو يجمع بين القوطي والروماني فله من الاول الرقة وله من الآخر القوة لذلك فهو طراز مهيب لطيف متناسق الخطوط كله انسجام ينشد فوق (اكربول) اثينا اغنية رصينة ويطوف حول تمثال الزهراء ^(١) بروح الفن والجمال .

وقبل ان اغادر غرناطة احببت ان اتوسع في رحلتي فقصدت الجبل المقابل للحمراء لاحتضى بمنظرها العام وجمال موقعها فذهبت ماراً في طريق ضيق بين بيوت قديمة عليها شيء من المسحة الشرقية يسكنها قوم هم مثال البؤس جلس بعضهم امام البيوت صامتين كأنهم كتلة من شقاء تركت هناك ، وجو مليء بالحزن والكآبة كله قائم موحش يوحي للانسان منظراً مربعاً ويذكره بقاجعة عظيمة . هنا جرت عام ١٥٦٩ الفظائع المخجلة والمجزرة التي مثلها فيليب واشياعه ، اجل في هذه البقعة السوداء كان يسكن البقية من العرب العاملين الذين

(١) الزهراء هي تمثال خيالي لآلهة الجمال

استسلموا لفرديناند وايزبلا ليعيشوا آمنين فقطعاً لهم العهد فاطمأنت نفوسهم واستمروا في اعمالهم المفيدة لان جملهم كانوا من الصناع والمزارعين ، كانوا اليد العاملة في البلاد . ثم اجبروا على ترك دينهم فاطاعوا ، كانوا يخضعون للقانون ويدعون للسلطان . ومع ذلك كانوا يأتون باجل الصناعات وانفع الاعمال العمرانية مدة من الزمن ولكن حينما جاء فيليب الثاني احب ان يكون من رجال التاريخ البارزين فاخذ في اضطادهم ناكثاً العهد الذي قطعه لهم من سبقة من ملوك اسبانيا الصادقين .

وقد بلغ به التعصب ان يتعرض لشؤونهم المتزلية . والظلم متى جاوز حده دفع الانسان الى الثورة مها كان ضعيفاً انه يرى في الموت راحة . فكانت النتيجة ان فيليب امعن فيهم قتلاً وتذبيحاً حتى ابادهم عن آخرهم وكانوا يبلغون نصف مليون من خيرة الفنانين واصحاب المهن . وهكذا فقد اصبح فيليب بعد هذه المأثرة من المشهورين لكن هذا لم يكف فجاء فيليب الثالث واصدر مرسوماً بقتل جميع العرب الموجودين في اسبانيا وهكذا انجز العمل الانساني واصبح فيليب من الخالدين ولكنه نسي انه يقتلهم قد حرم البلاد من قوة صناعية زراعية علمية فعالة ، هي قلب اسبانيا النابض مكتفياً بذهب

اميركا وبعض من كانوا ضربة على البلاد ، فاذا اسبانيا اضعف امة
في اوروبا بعد ان كانت صباحة السيادة فيها ، اصبح حالها كمن سعى الى
حتفه بظلفه . . .

اسرعت الخطى كي انجو من هذه المشاهد المؤثرة نحو كنيسة
سان نقولاس حيث وقفت هنيهة امام باحتها المطلة على الوادي . وهناك
يبدو منظر عام لقلعة الحمراء الداھية ابراجها في الغضا . ثم عكفت
راجعاً فمررت بكهوف العجر Gitanos وهم جماعات من الرحل
تعيش من الرقص والتدجيل امام بعض الاغبياء من السياح الذين
شاهدت منهم كثيرين هناك هم العربية بين يدي الراقصات يرشقونهم
بنظرات غرام مصطنعة . ويجب ان لا نبخسهم حقهم ايضاً فهم على
جانب عظيم من التقن في ضروب الرقص والاعراء ولهن فيه رشاقة
زائدة سيما الضرب على الكستنائيات والنقر على الدف .
هذا شي . مبتذل لا يهمننا البحث فيه فلنعد لاستجلا . ما في
معرض الطبيعة من جمال وبها .

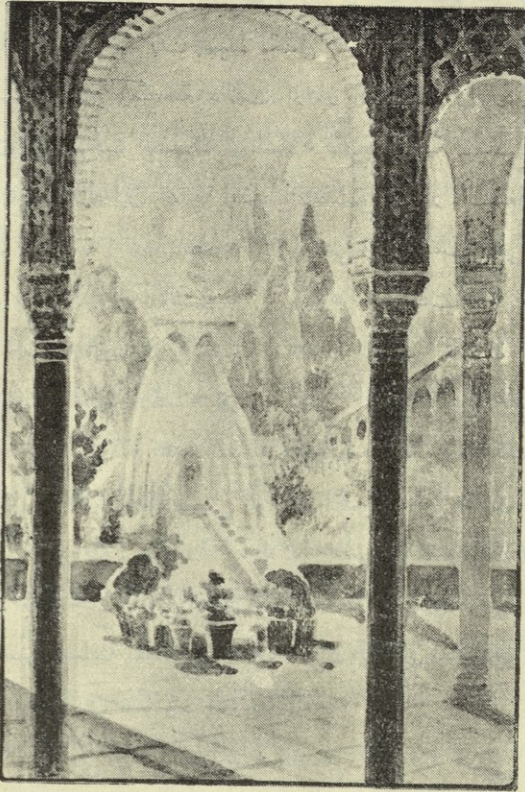
فما نحن امام منظر (الجنايف) او جناة العريف مصيف
امراء العرب . وهي تقوم على قمة رابية اكتنفها الخضار وبدت بعض
صروحها الناصعة التي تشرف على قصور الحمراء وتقوم ورائها جبال

(السيارة نفاذا) الشاخمة . فهرعت لزيارتها وكان يفصلها عني واد عظيم
وبعد ساعة كنت امام باب بسيط يتصل بطريق غرست على جانبه
اشجار سرو قديمة وشاهقة عانقت ازهار الدفلة والورد جذوعها
وانسابت على طرفيها ايضاً مجاري المياه ، فهي في حلة لايفصح عنها
ضمير باجمل مما قاله ابن خفاجة الشاعر الاندلسي مصور الطبيعة .

لله نهر سال في بطحاء اشهى وروداً من لمى الحساء
متعطف مثل السوار كانه ، والزهر يكتفه ، مجر سماء
وغدت تحف به الغصون كأنها هذب يحف بمقلة زرقاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الاصيل عن لجين الماء
وبدا في آخر هذا الطريق مقصورة عربية . وما كدت اقترب

من احدى شرفاتها المطلة على الوادي الجميل حتى هتفت من شدة
الاعجاب : غرناطة ! سهول (فيكا) ! الحمراء ! لله ما احلاها ، كلها
اصبحت جائمة تحت قدمي ! نعم الان ادركت ذوق الامراء الراقي
وفهمت سر البساطة المقصودة في هذا البيت القروي المنفرد هنا المختبى .
في هذه الرياض بين سكون الطبيعة التام .

لقد بنى الامراء هنا هذا الصرح ليشرفوا على ملكهم



جنراليف او (جنة العريف)

العظيم . لقد سُموا من السكنى في القصور الفخمة الملائى بالرياش
والنقوش ومقاصير تفيض بالفن والترف ومعامل جبارة كالتى تبدوا
بارزة الى يساري .

لاصغ الآن الى أنشودة المياه الجارية حولي وانتشق بملء
صدرى نسيم الزهر الذي يحف بهذه المقصورة والتي كأنها قسم من
فردوس ناء عن ضجيج المدينة .

اخذت اجيل الطرف في جنبات هذه الخائل والبناء
الموجود فيها فهو مستطيل مقسوم الى غرف متوسطة ثم رواق بقناطر
عربية مداره مكشوفة ، وفي وسطها امتدت بركة مستطيلة جداً وضيقة
تبعث من طرفيها نوافر تبلغ ايام السنة عدداً ولكن الجميل في هذه
النوافر انها تتعاقق فتشكل قناطر من الماء تتفق وشكل قنطرة
الباب الحجري الذي في نهاية البركة .

وهناك في الدار توجد حديقة شعت بالخضرة والالوان
المتضاربة والمياه المتلاعبه بانواع كثيرة داعبها النسيم فتعانقت ففاح منها
اريج يدخل القلب فيملأه صحة وسروراً . ثم بين الخضرة الكثيفة
ظهر درج حجري ولكنه ليس بالدرج الذي نعهد بل هو مبتكر
غريب ككل شي . صنعه العرب في هذه الديار .

صعدت عليه فاذا بالمياه ترافقني من على جنبيه وكذلك عند كل مصطبه تربعت فواره من المياه وهكذا تصعد درجات بين مياه وازهار الى ان تبلغ حديقة عالية ثم تتبعها ثانية فثالثة فرابعة الى لا ادري اين تنتهي . . . وربما كان الى النعيم ولكنني فيه . . . هناك بين الازهار والرياحين المتعانقة بين اشجار الحور والسرور والفاكهة بين المياه المنسابة من كل جانب بين القصور الضخمة والقلاع الجبارة بين جمال الطبيعة والفن الرائع والعظمة والنبوغ في جو الخلود وقفت ونظرت واعجبت فلم اجد قولاً للتعبير افصح مما قاله ذلك الفنان الفرنسي (رينبول) يوم وقف وقفتي هذه فسحر فهتف باعلى صوته قائلاً :

« لان تتزلزل الارض وتتساقط الكواكب وتميد الجبال وتنهال المدن، ماذا يهمنا - على ان تبقى الحمراء سالمة خالدة لكي يتاح لاصحابنا مشاهدتها . . . »⁽¹⁾

(1) « Que la terre ne tourne plus, que les étoiles tombent, que les montagnes deviennent vallées, que les villes s'écroulent, que nous importe, pourvu que l'Alhambra soit épargnée, et que nos amis puissent la voir » .

عفواً أيتها العبقرية العربية اذا لم اوفك حقاك من الوصف
لانك فوق الوصف ، وابلغ من سحر اليراع وفتنة الريشة .

باريس في حزيران ١٩٣١



فهرس الكتاب

	صفحة
المقدمة	-
الاندلس	٩
الفن العربي	٦
الفن الاندلسي	٩
تاريخ الاندلس	١٠
الفن العربي	١٧
وصف الرحلة	٢١
طليطلة المنبعة	٤٠
قرطبة دار العلم	٥٤
اشبيلية مدينة الطرب	٨١
غرناطة	٩٤

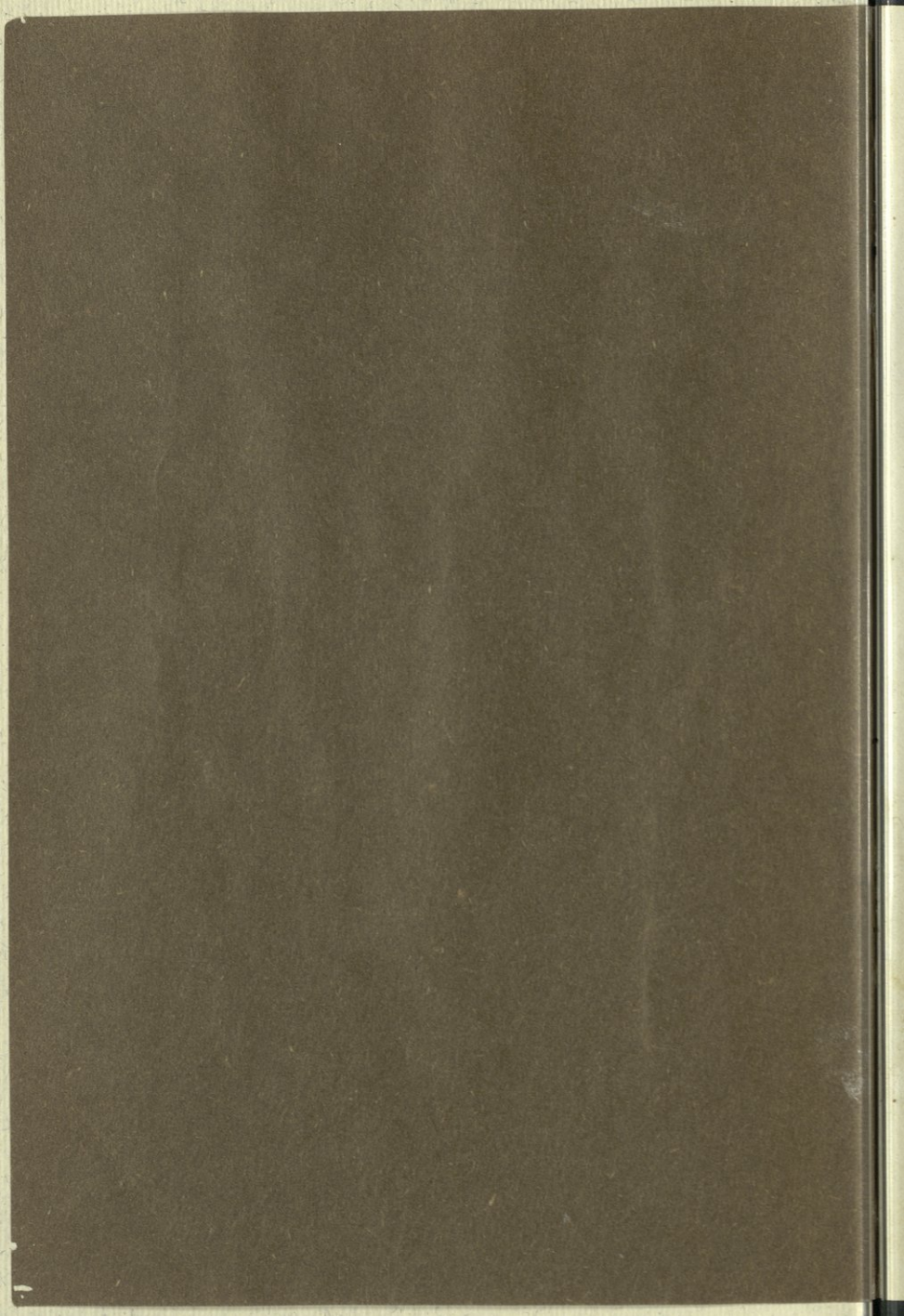
فهرس الصور

صفحة		صفحة
٧٦	مطاحن عربية	٢١ خارطة الرحلة
٧٧	تماذج اسبانية	٢٣ في طريقي الى الاندلس
٨٢	جسر القنطرة	٢٨ قرية اسبانية
٨٤	مأذنة (الجرالدا)	٤٤ كنيسة في طليطلة
٨٦	احدى غرف القصر	٤٩ باب الشمس في طليطلة
٨٨	دار العذارى	٥٢ قروي
٩٠	احدى قاعات القصر	٥٤ طريق في قرطبة
٩٣	منظر دار العذارى	٥٦ طريق في قرطبة
١٠٣	باب الخمر (الحمراء)	٥٨ مأذنة كنيسة سان نقولا
١٠٦	ناقوس تذكاري	٦٠ اندلسيات
١١٤	دار الريحان	٦٢ مسجد قرطبة الخارجي
١١٦	غرفة السفراء	٦٧ داخل جامع قرطبة
١١٨	نقوش عربية	٦٩ المحراب
١٢٤	ساحة الاسود	٧٢ جامع قرطبة
١٢٦	بركة الاسود	٧٥ الجسر الروماني

قلعة الحمراء	١٤٧	ساحة الاسود	١٢٨
ردهه الاستراحة	١٥٣	غرف العدل	١٣١
محراب (الحمراء)	١٥٥	غرفة الاختين	١٣٤
جنة العريف	١٦٢	مقصورة آل سراج	١٤٤



بسم الله الرحمن الرحيم
 مَا كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ
 مَا كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ
 مَا كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ



[REDACTED]

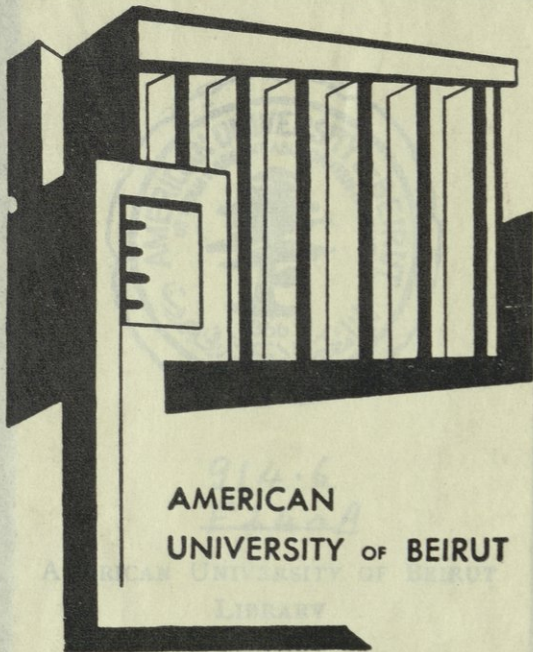
فروخ، مصطفى

رحلة الى بلاد المجد المفقود

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01045860



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

CA
914.602
F24-A
C.1